الهوية والآثار الناجمة عن التدريس بغير العربية
دراسة سوسيولوجية على عينة من طلبة الجامعة الأميركية بالقاهرة

صالح سليمان عبد العظيم(*)

الملخص

تنطلق الدراسة من تصور وجود مبالغة كبيرة بخصوص التأثيرات الناجمة عن التدريس بغير اللغة العربية على الهوية في العالم العربي؛ فمن الممكن التدريس باللغة الإنجليزية مع ضمان الانتماء للهوية. وارتباطا بتلك الفرضية فإن الدراسة ترى أيضا أن ضعف الهوية ناجم عن ضعف العرب الحضاري بشكل عام وليس عن ضعف في انتماءاتهم أو لغتهم. من هنا فإن الدراسة ترتبط بمحاولة سوسيولوجية تهدف إلى الكشف عن طبيعة تأثير التدريس باللغة الإنجليزية على طلبة الجامعة الأميركية في أقسام العلوم النظرية مثل الاجتماع وعلم النفس والأنثربولوجيا والعلوم السياسية والاتصال والإعلام من أجل الوقوف على الكيفية التي تشكلت بها هوياتهم والتعرف على مدى انتماءاتهم المجتمعية وإلمامهم بالقضايا الحيوية المختلفة.

ومن خلال مراجعة الاتجاهات النظرية الاجتماعية والنفسية تنتهي الدراسة إلى مجموعة من الموجهات النظرية تشتمل على الترابط بين الجوانب الذاتية للفرد وبين الهويات التي يتبناها ويرتبط بها،حيث يظل البناء الاجتماعي هو المجال الأوسع الذي تتشكل فيه الهوية، وهو ما يضعها دائما بين الثبات والتغير.

اعتمدت الدراسة على مقابلة مجموعة من طلبة الجامعة الأميركية بالقاهرة بلغ عددهم 35 طالبا وطالبة من كل من أقسام الاجتماع وعلم النفس والاتصال والإعلام والأنثروبولوجيا،حيث اعتمد التحليل المنهجي على جانبين الأول كمي يرصد البيانات الأساسية الخاصة بالطلبة والثاني كيفي يعتمد على تأكيد النتائج من خلال ما يقوله الطلبة ذاتهم أثناء تطبيق استمارة المقابلة غير المقننة عليهم.

هذا وقد انتهت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أبرزها أن هوية طلبة الجامعة الأميركية المحاطة بسياقات اجتماعية وأنماط سلوكية معينة واستخدام مكثف للغة الإنجليزية تتسم بمرونة عالية محكومة بظروف تخلف المجتمع المصري والتفاوتات الحادثة بين شرائحه الاجتماعية المختلفة. وهو أمر كشف أن التدريس بغير العربية لم يؤدي إلى حالة إضعاف لطلبة الجامعة الأميركية ولم يؤدي إلى تشكل هويات جامدة وصارمة لهم في مواجهة السياقات الاجتماعية المحيطة بهم قدر ما أسهم في تنامي قدراتهم المعرفية وفتح أبواب العمل واسعة أمامهم مقارنة بقرنائهم من خريجي الجامعات المصرية الأخرى، كما أنه ساعد أيضا على التواصل بين الخارج الأجنبي من ناحية والسياق الاجتماعي المحلي من ناحية أخرى.

* أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب – جامعة عين شمس

Summary

Identity and the Consequences of Teaching in Foreign Languages
A Sociological Study on a Student Sample from AUC

Saleh Seliman Abd ElAzim

Abstract

This study is based on the claim that there is an exaggeration concerning the negative impacts of non-Arabic instruction on the identity of Arab countries; for it is possible to teach in English and still maintain an Arab Identity. This study also sees that the link between Arabs and their National or Arab Identity is weak due to their frail civilization and not because their language is not suitable in expression or their because of their limited affiliation to the Arab world. From these claims, the study attempts to sociologically disclose the affect that English teaching has on students with theoretical majors in the AUC specifically looking at those who study sociology, psychology, anthropology, political science and communications and media. This will help in understanding how the students' identity has been created and affected and how loyal they are to their community and society as a whole.

After reviewing theoretical orientation and psychological approaches the study employs a specific frame work which includes the links between individualism and between the persons' identity that they have created for themselves where the society's development still remains the main scene for creating and developing the person's identity.

The study's information was based on the information gathered from 35 individual interviews from AUC students who come from a wide variety of departments. The interview was divided into two sections were the first being dependent on quantitative data and the second section was based on qualitative data which also helped in confirming the results gathered from the first section.

The study shows a group of different results most importantly that the identity of AUC students, which is associated with specific social behaviors and the evident dominant use of the English language instead of Arabic, is characterized with great flexibility directly linked to the conditions of the Egyptian society and the large gaps between its different social and economic classes. This has shown that instruction in the English language has not led to an identity that directly opposes and challenges their National Identity but instead has increased their awareness and has made them more open minded compared to those who graduate from public universities. It is also worth mentioning that their experiences have made them capable of communicating with both the local community and other foreign communities and societies.

المقدمة

تمثل الهوية عاملا هاما في تشكيل توجهات وممارسات الجماعات الإنسانية؛ فالهوية مسألة على قدر كبير من الأهمية من حيث ملا مستها لكافة ممارساتنا الحياتية وأنشطتنا اليومية. وتتبع أهمية الهوية من كونها ترتبط بالجوانب النفسية والاجتماعية للفرد كما تتشكل من خلال تفاعلاته مع الجماعة التي ينتمي لها في إطار التمايزات التي تضعها مقارنة بالجماعات الأخرى.

ولا تنشأ الهوية إلا في رحاب الإحساس بالذات الجمعية ودرجة تمايزها عن غيرها من الجماعات الأخرى المحيطة بها. فنحن لا نشعر بماهيتنا وبالتكوين الخاص بنا إلا حينما نتعامل مع غيرنا من الجماعات الأخرى المخالفة لنا في اللغة والتوجهات والقيم والأعراف والعادات والتقاليد واللون والدين والملبس والمأكل والمشرب وغيرها من أشكال التمايزات التي يضيفها البشر إلى ترسانة الاختلاف عن الآخرين وتحصين الذات الجمعية ضدهم. وتشمل الهوية العناصر المادية مثل الملبس والمسكن والطعام والشراب وطرق الاحتفال وأنشطة الحياة اليومية، والعناصر غير المادية مثل اللغة والدين والعادات والتقاليد والانتماء التاريخي. ولا يعني هذا التصنيف فصلا واضحا بين الجانبين المادي وغير المادي بقدر ما يعني تلازمهما واختلاطهما وتفاعلهما. فالعناصر المادية مثل الملبس والطعام والشراب هي التجسيد الواضح للعناصر غير المادية من الثقافة والتعبير المباشر عنها.

وتتعلق الهوية بالتفكير الجمعي وترتبط به ارتباطا واضحا لا لبس فيه، وبدون هذه التوجهات الجمعية لا يمكن الحديث عن وجود فعلي وحقيقي للهوية. فمن غير المعقول نشأة هويات تتعلق بأعداد محدودة جدا من الأفراد، لكن من المعقول جدا أن تسعى أعداد محدودة من الأفراد إلى بلورة هويات خاصة بأعداد أكبر من الأفراد المتشابهين معهم في التوجهات والمشارب. وفي إطار تشكل الهوية هناك فرق بين الإحساس العام بها، وبين الإقدام على التعبير عنها والتشبث بها، وفي بعض الحالات الدخول في مواجهات وأشكال صراعية مختلفة من أجل الدفاع عنها، وربما فرضها في سياقات اجتماعية معينة، وهي الحالة الأكثر تطرفا في مشهد الهويات.

فجميعنا لدينا إنتماءات لهويات معينة، الأمر الذي يخلق معه إحساسا عاما بالإنتماء لكيانات بعينها. وهو أمر يجعل من الصعوبة بمكان العثور على أفراد أو جماعات ليس لديهم درجة ما من درجات الشعور بالإنتماء لهويات معينة. ويمكن القول بأننا نعيش ونحيا ضمن أشكال وألوان وأطياف مختلفة من الهويات المتنوعة، لكن أمر المعايشة والتفاعل وربما التلاقي يختلف حتما حينما تتحول هذه الهويات من أطرها المحسوسة إلى أطرها الفاعلة حيث تنتقل من الوجود المحسوس إلى أطر التعبير عنها بكافة الوسائل المتاحة والممكنة. وقد يصل التعبير عن الهوية إلى مرحلة الصراع مع الهويات الأخرى التي تحاول هى الأخرى التعبير عن نفسها.

وربما وبسبب من دخول الهويات إلى ساحة الصراعات والمواجهات فإنها تتسم بدرجة ما من درجات الثبات والاستقرار، فالهويات ليست موضات نغيرها حسبما يعن لنا لكنها أطر محددة تقولبنا وتوجهنا على الرغم من أنها حصيلة تفاعل الأفراد واختيارهم وتشكيلهم لها. فالهويات غير قابلة للتغير بسهولة بسبب طول الفترات التاريخية التي تتشكل عبرها، وارتباطها الحميم بالأفراد والجماعات والشعوب. وإذا كنا قد ذكرنا آنفا بأنه لا يمكن تشكيل الهويات من خلال عدد محدود من الأفراد، فإنه لا يمكن تشكيلها أيضا عبر فترات زمنية محدودة. فالزمن مسألة هامة جدا بالنسبة لتشكيل الهوية والتيقن منها والارتباط بها. كما أن الزمن يساعد أيضا على توضيح العناصر الفاعلة في تشكيل الهوية والعناصر الثابتة المستمرة فيها وتلك الهامشية بالنسبة لها.

وتساعد دراسة الهوية على تحديد العناصر الأساسية الثابتة للجماعات الإنسانية وتلك القابلة للتغير، إضافة إلى التعرف على أسباب هذا التغير. فمن الواضح أن أية هويات تنطوي على عناصر ثابتة أو بشكل أكثر تحديدا عناصر لا تعتورها أشكال التغيير المتلاحقة، مقابل عناصر أخرى تتغير بسهولة وتكتسب تشكيلات وتحورات جديدة. من هنا فإن التعرف على الهويات وطبيعتها يجب أن يضع في حسبانه الوقوف على الجوانب الثابتة والمتغيرة فيها بما يساعد على فهمها وتحليلها.

إن دراسة الهويات مسألة على درجة كبيرة من الأهمية في عالمنا المعاصر الذي تتزايد فيه حدة الانقسامات والعداءات بين الكتل الاجتماعية المختلفة. وبديلا عما تصوره البعض من قدرات العولمة فيما يتعلق بتبادل الأفكار والتفاعل بين البشر، تصاعدت حدة الخلافات وزادت وتيرة الحروب. وإذا ما نظرنا في العمق من كل هذه الخلافات والحروب لأمكن ردها إلى صراع الهويات وانفلاتها من طور الحوار والعقلانية والقبول بالآخر إلى طور التنابذ والتشاحن ونفي الآخر. ففي الخلف من كل هذه الصراعات يوجد شكل من أشكال الإلتفاف حول الهويات والتمترس بها والدفاع عنها.

ولا يختلف الواقع العربي عما يحدث في العالم ككل فيما يختص بالهويات والصراعات المرتبطة بها، بل يمكن القول بأن العالم العربي متخم بأشكال عديدة من الهويات وجوانب الصراع المرتبطة بها. ولعل ما حدث في العراق بعد الغزو الأميركي يكشف عن الكم الهائل من الهويات التي عبرت عن نفسها بطرق وأشكال مختلفة بدءا من استدعاء اللغة والحديث بها مرورا بإبراز الجوانب الرمزية والمادية المرتبطة بالعادات والتقاليد والأعراف وانتهاء بالدين الذي يتصدر مساحة كبيرة من المشهد العراقي المعاصر.

ولا يقف الأمر فقط على العراق كحالة دراماتيكية واضحة لكنه يتعداه إلى الوضع في كافة الدول العربية وعلى رأسها لبنان والسودان. ورغم تصدر

الصراعات السياسية المشهد العربي بشكل واضح إلا أن صراع الهويات والرغبة في تصدر المشهد المجتمعي من قبل البعض على حساب البعض الآخر ما هو إلا صراع هويات أيا كانت العناصر التي تشكلها والأهداف التي تتطلع إليها وحجم الخسائر التي يمكن أن تقدمها. فصراع الهويات في النهاية لابد أن يكون دمويا، ولعل الخسائر الهائلة التي دفعها الشعب اللبناني تبرز إلى أي مدى يمكن أن تصل بنا حالة التمترس الجامدة بالهويات، وما يرتبط بها من رغبات شيطانية تتعلق بإزاحة الآخر. وعموما يمكن القول بأن حدة الارتباط بالهويات تختلف من مجتمع لآخر ومن نوعية بشرية لأخرى وفقا لمستوى التقدم المجتمعي وقدرة الأفراد على التوصل لصياغة تكفل للجميع العيش وتقبل بعضهم البعض بدون الدخول في اختلافات صراعية قد تفضي للاقتتال الدموي وتدمير لحمة المجتمع.

ورغم حالة الصراع الهائلة التي تنتاب الكثير من الدول العربية فيما يتعلق بصراع الهويات، فإن هناك بعض الجوانب التي يجتمع عليها العرب مع ما تخلقه في الوقت نفسه من تداعيات عديدة ترتبط بصراع الهويات. وتعتبر اللغة العربية من بين الأدوات الهامة المرتبطة بتشكيل الهوية التي يراها البعض من أهم أركانها والعامل الرئيس المحافظ على وجودها ومنحها الهيئة الخاصة بها؛ فنحن عرب لأننا نتحدث العربية، كما أنهم أجانب لأنهم يتحدثون بلغات أخرى غير العربية (See, Suleiman 2003).

فاللغة هي حاضنة التعبير عن الهوية والفهم الواعي وغير الواعي لها؛ من هنا يمكن تعليل الأسباب العديدة التي تؤدي بالكثيرين إلى الحديث عن أهمية اللغة العربية وضرورة الحفاظ عليها في مواجهة استشراء التحدث باللغات الأجنبية الأخرى، وعلى رأسها الإنجليزية. وينبع الخوف من هجرة اللغة العربية، وبشكل خاص في التعليم، إلى أن العربية هي لغة القرآن؛ فلا تتعلق المسألة فقط بكون التخلي عن اللغة العربية هو تخلي عن هويتنا العربية الشرقية لكنه يتضمن أيضا التخلي عن القرآن، ومن ثم التخلي عن الدين. وهناك العديد من الندوات والمؤتمرات التي تعقد من أجل الحديث عن اللغة العربية وتقييم أوضاعها وتحديد عوامل الضعف التي تنتابها، وبشكل خاص في مواجهة إنتشار التعليم باللغة الإنجليزية على مستوى العالم العربي ككل.

ومما يلفت النظر هنا أن تلك الحالة من الخوف من اللغة الإنجليزية والتأثيرات المرتبطة بها لا توجد في مجتمعات أخرى بمثل الحدة التي توجد بها في عالمنا العربي. فالهنود على سبيل المثال يتحدثون الإنجليزية بشكل أفضل مما يتحدث به العرب، وتنتشر الإنجليزية بشكل كبير بين أبناء الطبقة الوسطة الهندية، ورغم ذلك لا يشعر الهندي بالدونية والضعف التي يشعر بهما العربي في مواجهة اللغة الإنجليزية والتداعيات المرتبطة بها على مستوى اللغة العربية. كما أن العرب يتحدثون ليل نهار عن أهمية اللغة العربية ويلهثون في الوقت نفسه وراء تعليم

أولادهم في المدارس والجامعات الخاصة التي تعتمد اللغة الإنجليزية لغة رئيسة وأولى للتدريس. من هنا يمكن القول بأن العرب يقعون في إزدواجية الهوية بين الدعوة للحفاظ على اللغة العربية وبين الارتماء في أحضان الإنجليزية اللغة الكونية الأولى بامتياز.

وفي ضوء ما سبق يعني البحث الراهن بالتعرف على تأثيرات التدريس باللغة الإنجليزية على الهوية وذلك من خلال عينة ميدانية من الطلبة المصريين في الجامعة الأميركية بالقاهرة. وينطلق البحث الراهن من تصور وجود مبالغة كبيرة بخصوص التأثيرات الناجمة عن التدريس بغير اللغة العربية على الهوية في العالم العربي؛ فمن الممكن التدريس باللغة الإنجليزية مع ضمان الانتماء للهوية وبدون أي تهاوي للشخصية العربية. وارتباطا بتلك الفرضية فإن الدراسة ترى أيضا أن ضعف الهوية وإعادة تشكيلها بعناصر الضعف المختلفة ناجم عن ضعف العرب الحضاري بشكل عام وليس عن ضعف في انتماءاتهم أو في لغتهم. من هنا فإن البحث الراهن يرتبط بمحاولة سوسيولوجية تهدف إلى الكشف عن طبيعة تأثير التدريس باللغة الإنجليزية على طلبة الجامعة الأميركية في أقسام العلوم النظرية مثل الاجتماع وعلم النفس والأنثربولوجيا والعلوم السياسية والاتصال والإعلام من أجل الوقوف على الكيفية التي تشكلت بها هوياتهم والتعرف على مدى انتماءاتهم المجتمعية وإلمامهم بالقضايا الحيوية المختلفة.

أولا: المرجعية العلمية للبحث والتوجهات النظرية المرتبطة به:

ينطلق البحث الراهن من تصور مخالف للتصورات العامة التي ترى بأن التدريس بلغة أخرى غير العربية يضر بالأخيرة كما يضر بدرجات متفاوتة بالهوية. وحتى يمكن التعرف على ذلك فإن البحث الراهن ينطلق من توجه ميداني يتناول أقدم المؤسسات العلمية الجامعية الأجنبية في القاهرة التي تقوم بالتدريس باللغة الإنجليزية ألا وهي الجامعة الأميركية. ورغم أهمية التوجهات الفلسفية والتاريخية واللغوية التي تتناول موضوع الهوية فإن الدراسة الراهنة، من خلال توجهاتها السوسيولوجية التي ترى بأهمية الجمع بين الجوانب الذاتية الفردية وبين السياق المجتمعي الذي ينشأ ويتطور فيه الأفراد، تقدم رؤية موضوعية تنطلق مما يقرره الواقع المعيش من خلال عينة محددة من طلبة الجامعة الأميركية في القاهرة (أنظر Callero 2003، و أنظر أيضا Rieber 1998).

فالدراسات الفلسفية تفتقد إلى الحكم الميداني الموضوعي رغم أهمية ما تعرض له من رؤى فلسفية (أنظر مسكيني 2001)، كما أن الدراسات التاريخية تقدم رصدا تتبعيا لما آل إليه حال الهويات، وهي هويات غير محددة بشكل جيد بقدر ما ترتبط بتاريخ الشعوب المحكي (أنظر لامي 2000)، وأخيرا فإن الدراسات اللغوية تركز على تحولات اللغة بمعزل عن الكشف الفعلي عن حجم

تأثيراتها على بنية الهويات المجتمعية (أنظر نجار 2008). ورغم أهمية المداخل الثلاثة السابقة فإنها تقتصر على مجالاتها التخصصية من ناحية كما أنها لا تقدم تفسيرا اجتماعية واضحا لكيفية تشكل الهويات وتطورها عبر الزمان والمكان من ناحية أخرى.

من هنا يمكن القول بأن التصور البحثي الراهن يربط بشكل واضح تماما بين تحولات الهوية وتأثيرات التدريس بلغة غير العربية من خلال ما سوف يكشف عنه الواقع الميداني؛ فالبحث الراهن لا يفرض توجهات مُسبقة يلوي من خلالها عنق الحقيقة، بقدر ما يترك المسألة رهنا حقيقيا باستجابات عينة الدراسة، مع ما سوف يضفيه التحليل الخاص بنا عليها. لا يعني ذلك بأن الدراسة لا تنطلق من أية فروض مسبقة، العكس هو الصحيح كما بينا سابقا من خلال التأكيد على أن التدريس باللغة الإنجليزية لا يعني بالضرورة تأثيرا على الهوية بقدر ما ينبع التأثير على الهوية من الضعف الحضاري العام.

إن مشكلة العلاقة بين الهوية واللغة في عالمنا العربي ترتبط أولا بقلة الدراسات الخاصة بها بشكل كبير، وارتباطها المسبق بتوجهات أيديولوجية تفتقد الحيدة في التحليل؛ فهى إما آراء قومية ترى في الحديث عن اللغة فرصة في تأكيد توجهات قومية عربية، وإما أنها آراء دينية تتعدى الإطار القومي إلى الإطار الديني بما تحمله العربية من دلالات مقدسة لا تفيد البحث العلمي في شيئ (أنظر خضر 2009؛ لبيض 2009؛ الحمد 2006، وهدان 2010؛ قديمي 2008، Ahmed 2010). وهى مسائل تحاول الدراسة الراهنة تجنبها من خلال تقديم صورة أقرب للموضوعية بالنسبة لواقع حال طلبة الجامعة الأميركية الذين يمارسون حياتهم التعليمية من خلال اللغة الإنجليزية ووسائطها والدلالات المرتبطة بها وطرق التفكير الخاصة بها.

ثانيا: الجانب الذاتي في موضوع الدراسة

لكل دراسة جوانبها الذاتية المتعلقة بالباحث وبأسباب تناوله للموضوع، ورغم أن الموضوع الراهن يرتبط في خطوطه العامة بموضوع اللغة والهوية، فإنه يرتبط في تطبيقاته الأكثر تحديدا بالجامعة الأميركية وطلبتها. فلماذا الجامعة الأميركية على وجه التحديد؟ ولماذا اختيار عينة من طلبتها الذين يدرسون العلوم الإنسانية على وجه الخصوص؟

بالنسبة لي كعضو هيئة تدريس في إحدى الجامعات المصرية الحكومية فإن الجامعة الأميركية، وبشكل خاص مكتبتها العامرة بكافة أنوع الكتب العربية والأجنبية، كانت تمثل بالنسبة لي الوجه الآخر الأكثر حداثة من جامعتي الحكومية الفقيرة والمتواضعة جدا. وتقع الجامعة الأميركية في ميدان التحرير المصري الشهير، حيث تبدو مبانيها جزر منعزلة عن السياقات المحيطة بها، حيث الازدحام

والفقر والتكدس الهائل، وحيث العديد من المؤسسات الرسمية الحكومية وعلى رأسها أكبر المباني البيروقراطية في التاريخ المصري المعاصر، "مجمع التحرير".

وعموما لا وجه للمقارنة بتاتا بين جامعة تتجاوز تكلفة الطالب السنوية فيها المائة ألف جنيها مصريا، وبين الجامعات الحكومية التي لا تزيد تكلفة الطالب فيها عن بضع مئات من الجنيهات في السنة. فتكلفة الأولى هى التي توفر هذه المكتبة الهائلة التي لا يوجد لها مثيل في مصر، وهى التي توفر مدرسين أجانب، وإمكانيات بحثية ممتازة، وتواصل لا ينقطع مع العالم الخارجي. كما أن هذه التكلفة هى التي توفر الانضباط التدريسي والتعليمي داخل الجامعة الأميركية مقارنة بغيرها من الجامعات المصرية الحكومية. وفي هذا السياق كانت علاقتي بالجامعة الأميركية تنحصر بشكل رئيس في الحصول على عضوية المكتبة بغرض الإطلاع، نظير مبلغ سنوي نظرا لانتمائي لإحدى الجامعات المصرية. فهذه الخدمة غير متاحة سوى للباحثين وأعضاء هيئة التدريس الذين يعملون في الجامعات المصرية.

كنت في ذلك الوقت باحثا مبتدءا محدود الدخل والإمكانيات، مشحونا بالأيديولوجيات التي تؤججها مشاعر الشباب، وتؤججها حمى الانتماءات الضيقة أو لنكن أكثر موضوعية، حمى الانتماءات المرتبطة بالسياقات العمرية والأوضاع الطبقية. كانت الجامعة الأميركية بالنسبة لي، رغم انبهاري الشديد بمكتبتها، حصن أميركي من حصون التغريب المصري الذي ينتج أجيالا لا تمت بصلة للمصريين، وتساعد على تجذر المشروع الأميركي الصهيوني في مصر. ولم يقف الأمر عند هذه التصورات لكنه كان يشتعل يوميا بالكثير من المقارنات بين الخارج الفقير المتخلف حيث ميدان التحرير والداخل الغني المتقدم حيث الجامعة الأميركية.

فالحالة الفجائية التي كنت أجد عليها نفسي بعد ولوجي مباني الجامعة والدخول إلى المكتبة كثيرا ما كانت تفرض المقارنة السريعة بين الخارج المتخلف المحيط وبين الداخل المتقدم المنعزل، خصوصا في ضوء هذا الحشد من الطلبة الأثرياء الذين بدوا لي في تلك الأيام من تسعينيات القرن الماضي تافهين وغير مجتهدين دراسيا بسبب أسلوب حياتهم الذي يتسم بالدعة والراحة وإمارات الثراء المبهرة والصخب والضوضاء. لكن رغم ذلك كانت المكتبة أكثر من رائعة والخدمات المقدمة فيها خدمات فندقية مريحة وسهلة سواء من حيث التصنيف أو حداثة الكتب أو الدوريات أو الجرائد أو المجلات أو حتى نظافة المكان وتوفر الحمامات والكافيتريات.

وشاءت الظروف في أثناء هذه الفترة، في النصف الأول من تسعينيات القرن الماضي، أن ألتحق دراسيا بأحد مقررات الجامعة الأميركية لطلبة الدراسات العليا الذي يقرره واحد من أشهر علماء الاجتماع السياسي المصريين الذين عارضوا نظام الرئيس المصري المخلوع. كانت تجربة فريدة وجديدة بالنسبة لي ولزميلين آخرين

التحقا معي في المقرر نفسه. اقتربت الآن بشكل كبير من هذا العالم الذي لم أقترب منه سوى من خلال الكتب والدوريات العلمية، فقد كنت نادرا ما أحتك بأحد الطلبة في المكتبة اللهم إلا إذا كنت أريد السؤال عن موقع كتاب ما، أو كيفية البحث عن شيئ ما. وكانت معظم ملاحظاتي تتم عبر العين التي لم تكن تترك شاردة وواردة إلا وتسجلها من أجل فهم هذا العالم الجديد على والغريب أيضا.

الآن يمكنني الملاحظة القريبة أو بلغة منهج علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الملاحظة بالمشاركة، وإن كانت مشاركة محددة بمقرر خاص بقسم الاجتماع لمدة فصل دراسي واحد. الآن تشتبك ملاحظاتي لطلبة الجامعة الأميركية في المكتبة وفي رحاب الجامعة مع ملاحظاتي المباشرة لطلبة الدراسات العليا وبشكل خاص طريقة تفكيرهم وتوجهاتهم الأيديولوجية والسياسية. وهى مسألة شاءت الأقدار فيما بعد أثناء إجرائي لهذا البحث أن تشتمل عينته على خلطة من طلبة المرحلة الجامعية والدراسات العليا وإن كانت الغلبة للأولى على الثانية بحكم العدد والنسبة والتناسب من أجل تمثيل جيد للعينة.

كان الفصل الدراسي يشتمل على ما يقرب من الخمسة عشر طالبا وطالبة إضافة إلى ثلاثتنا من الحاضرين من الجامعات المصرية. كان الطلبة يجلسون باسترخاء شديد في الفصل الدراسي يشربون قهوتهم، أو يمدون أرجلهم على المقاعد الأمامية، بدون وجل أو خوف من المحاضر الشهير. وكانت المناقشات تسير بشكل ودي وحميم بعيدا عن تلك الهيمنة التي كان يمارسها أغلب الأساتذة المصريين أثناء إلقاء محاضراتهم، ناهيك عن تعسفهم في المعاملة، ورغم ذلك لاحظت إلمامنا أكثر من هؤلاء الطلبة بالكثير من المعلومات السوسيولوجية، وإن كانت مناقشاتنا قد غلب عليها الطابع الأيديولوجي بعيدا عن الطابع المعرفي الهادئ الذي ميز طلبة الجامعة الأميركية.

اكتشفت في ذلك الوقت أننا أقرب للسياسيين مقارنة بطلبة الجامعة الأميركية وبطريقة دراستهم الهادئة، فوفقا لأنماط تربيتنا وبأصولنا الاجتماعية المتوسطة الدنيا أو المتوسطة المتوسطة وبطريقة تعليمنا الأقرب للحفظ والاستذكار والخضوع التام للمدرس في مرحلة ما قبل الجامعة أو الأستاذ في المرحلة الجامعية فإننا كنا متسلطين في عرض آرائنا؛ نريد أن نتكلم أكثر مما نسمع أو نفهم ما يُقال لنا. وكانت خلفياتنا الاجتماعية تقودنا إلى الدفاع عن آرائنا بحدة أيديولوجية أقرب للممارسات الحزبية السياسية منها لقاعات المحاضرات التي يجب أن يسود فيها الحوار العلمي الهادئ والرصين.

وربما في تلك المرحلة انبثقت فكرة الهوية في ذهني، وتبادر السؤال المباشر ما الذي أدى بنا للإرتماء في أحضان الأيديولوجيا بشكل كبير، مقارنة بهؤلاء الطلبة الذي يدرسون بهدوء وبدون صخب؟ وللحق فإنهم كانوا أقرب للعلمية منا رغم ضحالة معلوماتهم. ورغم أنني أرى أن الأيديولوجيات هى عصب علم

الاجتماع، فإنه من الضروري أن نتحلى بالعلمية بما يضمن موضوعية التناول والقدرة على التحليل الهادئ الذي يوصلنا لفهم الواقع بدون أية تحيزات مسبقة أو أية آراء قد لا تتسق ومجريات الأمور.

وأزعم أنني استفدت بشكل كبير من هذا المقرر، ومن طريقة الأستاذ الشهير في التدريس، وقدرته على توصيل المعلومة من خلال حوارات عديدة مع الطلبة، وربط ذلك بما يحدث في الواقع المصري والعربي المعاصر. لقد استفدت من طرائق تدريسه أكثر من حجم المعلومات الذي عرض له. وللعلم فإننا نفتقد في الجامعات المصرية والعربية تلك الطرائق الحديثة التي تتبني بشكل أساسي على دمقرطة العملية التعليمية بحيث لا يسودها الأستاذ ويتحكم فيها، وهي مسألة نفتقدها بشكل كبير في سياقات البنية العربية الأبوية الظالمة والمجحفة لقدرات الفرد وإطلاق إبداعاته المختلفة. لقد تغيرت تصوراتي نسبيا عن الجامعة الأميركية بعد حضور هذا المقرر، وانبثق سؤال جديد ليعيد تشكيل هويتي الصارمة الرافضة لها: إذا كانت العملية التدريسية تتم بشكل ديمقراطي ومحترم لكيان الطلبة وقدراتهم التعليمة وتوجهاتهم الفكرية أليس ذلك أفضل حالا من واقع الجامعات المصرية التي تكرس الديكتاتورية وعبادة الفرد الأستاذ؟

بالطبع لم تكن الإجابة حاسمة بالنسبة لباحث شاب تربى في أحضان الأيديولوجيات والرفض لما هو أميركي، رافضا للغة الإنجليزية المضادة للغتنا العربية، اللغة الوحيدة التي نعرفها، خصوصا في ظل المعاناة الشديدة التي نجابهها في الإطلاع باللغة الإنجليزية خلال عملية الترجمة لما نريد اقتباسه من المراجع الأجنبية.

لم تكن الإجابة حاسمة بسبب التعالي على الآخرين والإحساس أننا أفضل منهم رغم تدني مستويات جامعاتنا المصرية بشكل كبير، ورغم تفضيل سوق العمل لخريجي الجامعة الأميركية عن قرنائهم من خريجي الجامعات الحكومية المصرية. وللعلم فإن هذه الرؤية لا تقتصر فقط على رفض الجامعة الأميركية والتعالي عليها ونعتها بأحط الأوصاف، فحتى الآن نرى أنفسنا أفضل من الغرب الذي نعيش عالة على كافة منتجاته ونتعامل معه على أنه أرض الخطيئة والكفر والإلحاد التي تنتظر عقاب الرب الإله، وهي نظرة تسود قطاعات كبيرة من المصريين، وبشكل خاص ذوي التوجهات الدينية.

وبشكل عام فقد تركت الجامعة الأميركية قبل سفري للولايات المتحدة الأميركية من أجل الحصول على درجة الدكتوراة وأنا أعاني بالتأكيد من حالة الإزدواجية الهائلة بين هم ونحن، بين طلبة الجامعة الأميركية وبيننا نحن طلبة الجامعات المصرية. ورغم ذلك فإن التواصل والتلاحم من خلال المقرر الدراسي الذي حضرته مع أستاذ الجامعة الأميركية الشهير قد حرك تفكيري بدرجة كبيرة وأتاح لي فرصة المقارنة بيننا وبينهم، بالطبع لصالح البنيات الحديثة المتقدمة.

هذه الأبعاد الذاتية المؤثرة بالنسبة لي تطورت بشكل كبير بعد دراستي في أميركا بحيث لم تعد الجامعة الأميركية بالنسبة لي ذلك المكان المعادي للسياق العام، بقدر ما تحولت إلى بؤرة من بؤر التغيير والتحديث في مصر. وهي مسألة تطرح علينا مسألة الهوية بوصفها كيانا غير جامد متحرك ومتغير بمرور الزمن الذي يغير من أوضاعنا الاجتماعية من ناحية ومقدراتنا العمرية من ناحية أخرى. فإلى أي مدى يتحقق ذلك من خلال التدريس باللغة الإنجليزية في الجامعة الأميركية؟ وإلى أي مدى يتحقق ذلك أيضا من خلال تغير هويات الطلبة في هذه الجامعة سواء من خلال الانتقال من مرحلة الدراسة ما قبل الجامعية من ناحية أو الإنتقال من المرحلة الجامعية إلى مرحلة الدراسات العليا؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عليه من خلال التلاقي بين إعادة تشكل هوية الباحث ذاته، وإعادة تشكل هويات المبحوثين أنفسهم، خصوصا إذا ما وضعنا في الإعتبار أن الجامعة الأميركية ذاتها قد انتقلت من ميدان التحرير ميدان الثورات وبوابة المرور إلى كافة مناطق مصر الفقيرة والغنية على السواء، إلى منطقة القاهرة الجديدة، الحي المصري الفاخر، حى الأثرياء والمتنفذين، بحيث تنعدم المسافة بين الداخل والخارج مثلما كان عليه الحال في منطقة التحرير.

ثالثا: الدراسات النظرية السابقة

ظهر مفهوم الهوية بشكل كبير في الولايات المتحدة الأميركية في ستينيات القرن الماضي، وإن كانت بداياته الأولى تعود إلى النصف الثاني من خمسينياته. فقد ساعدت وضعية المجتمع الأميركي واشتماله على أعراق عديدة من المهاجرين على ظهور دراسات الهوية وانتشارها بشكل تجاوز المجتمعات الأوروبية التي ركزت أكثر على دراسة الطبقات الاجتماعية وتأثيراتها. وفي هذا السياق لعبت حركات السود منذ الستينيات والحركات النسوية منذ السبعينيات دورا كبيرا في توسيع دائرة الاهتمام بدراسات الهوية في العديد من الأقسام الأكاديمية في الجامعات الأميركية.

ويرى Brubaker and Cooper أن مفهوم الهوية قد انتشر بشكل كبير في الستينيات لأسباب عديدة، حيث انتشر في الأوساط الصحفية والأكاديمية على السواء، كما ارتبط بالممارسات السياسية والاجتماعية (أنظر ص. 3). كما يؤكد الكاتبان أيضا على أن ضعف التراث النظري المرتبط بالتحليل الطبقي كهوية في الولايات المتحدة قد تم الاستعاضة عنه بالتأكيد على الهويات العرقية والإثنية، على عكس الحال في أوروبا التي اهتمت بالتحليل الطبقي، وأفردت له العديد من الدراسات.

ويعني ذلك أن دراسة موضوع الهوية قد اختلف فيما بين أميركا وأوروبا؛ ففي الوقت الذي فرضت فيه دراسات الطبقة نفسها على السياق الأوروبي فإن دراسات الهوية والإثنيات قد فرضت نفسها على السياق الأميركي. ويعود ذلك

للنشأة المبكرة للعلوم الإجتماعية في أوروبا وبشكل خاص علم الاجتماع، كما يعود أيضا لطبيعة بنية المجتمع الأميركي الذي تحوز فيه الأعراق والإثنيات حيزا ضخما من الأهمية والتأثير إضافة إلى الطبيعة العملية التطبيقية لدراسات علم الاجتماع الأميركي.

ويمكن القول بأن التحليل النفسي قد غلب على الأعمال الأولى المرتبطة بالهوية؛ وتُطرح أعمال إريك إريكسون Erik H. Erikson في هذا السياق بوصفها أهم أعمال هذه المرحلة، وبشكل خاص مفهوم "أزمة الهوية" Identity Crisis. وتستند نظرية إريكسون على عدم تيقن الأفراد من الأدوار التي يقومون بها، وبالتالي عدم إدراكهم لأنفسهم، وهو أمر يُفضي في النهاية إلى أزمة هوية. ويعتبر إريكسون أن أزمة الهوية أخطر المراحل التي يمر بها الأفراد في تطورات حياتهم المختلفة، وبشكل خاص مرحلة المراهقة. ففي مرحلة المراهقة تتضارب تصورات المراهقين حول المطلوب منهم، وما إذا كانوا ينتمون لعوالم الطفولة السابقة أم أنهم يشكلون عوالم جديدة يجب أن يتقبلها المحيطون بهم، من هنا فإن ثمة تنازعات عديدة تشملهم بما يؤدي لفترة من الوقت لحدوث أزمة هوية تتفاوت من مراهق لآخر(أنظر Erikson 1959&1969).

ويربط تحليل إريكسون الهوية بالنواحي الذاتية للفرد وقدرته على تحديد وضعيته في ضوء الآخرين المحيطين به؛ فهي نظرية ترتكز بالأساس على الأبعاد الفردية أكثر من الأبعاد الاجتماعية. ويعني ذلك أن نظرية إريكسون تمنح العوامل الذاتية التي يقدرها الأفراد لأنفسهم مساحة كبيرة في تشكيل الهويات الخاصة بهم أكثر بكثير من السياقات الاجتماعية المحيطة بهم ومدى تأثيرها عليهم.

وفيما بعد بدأت التفسيرات الإثنية الجديدة للهويات المختلفة في الظهور من خلال محاولة جوردون ألبورت Gordon Allport في كتابه الشهير "طبيعة التحيز" The Nature of Prejudice الذي طبع لأول مرة عام 1954. والكتاب محاولة جادة من أجل الوقوف على أشكال التحيز والتمييز وكيفية ظهورها في المجتمعات الإنسانية. ورغم أن ألبورت كان عالم نفس إلا أنه استطاع أن يقف على مظاهر عديدة من التحيز والتمييز في المجتمعات الإنسانية مثل المظاهر العرقية والدينية والإثنية والاقتصادية والجنسية، وهي مظاهر تلعب دورا كبيرا في تأجيج الهوية والحث على الشعور بها وتشكيلها في مواجهة الجماعات البشرية الأخرى.

ويُعتبر هنري تاجفيل وجون تيرنر Henri Tajfel and John Turner من أوائل من أسسوا نظرية للهوية الاجتماعية نهاية خمسينيات القرن الماضي من أجل فهم الأسس النفسية التي تتميز بها أي جماعة. فالمحاولة ارتكزت على علم النفس الاجتماعي وحاولت الربط بين الجوانب النفسية والاجتماعية الخاصة بتأسيس الهويات في المجتمع. وتتشكل هذه النظرية من أربعة عناصر هي: التصنيف

Categorization، التحديد Identification، المقارنة Comparison، وأخيرا التمايز السيكولوجي Psychological Distinctiveness.

فمن خلال عمليات التصنيف والتحديد يمكن بلورة ملامح محددة يتم على أساسها إجراء مقارنات مع غيرها من الجماعات الأخرى وتأسيس تمايزات سيكولوجية عميقة وجوهرية. فنحن نصنف أنفسنا بداية في ضوء معرفتنا بالآخرين المحيطين بنا، وبشكل خاص الجماعات الأخرى الأكثر تبلورا، وربما المهددة لنا. ويؤدي ذلك إلى مستوى آخر ينتقل من حالة التصنيف إلى التحديد الذي يمنحنا قدرا أكبر من التبلور والتشكل في مواجهة الآخرين. إن هاتين العمليتين تؤديان لا محالة لإجراء مقارنات مستمرة بيننا وبين الآخرين. بل إنه يمكن القول بأن عملية المقارنة هذه شاملة لكل من عمليتي التصنيف والتحديد وإن كانت تتم بمستويات أقل إلى أن تتخذ أشكالا من الوضوح والعلانية، وهو ما يؤدي في النهاية لخلق شكل من أشكال التمايز النفسي في مواجهة الآخرين. وترتبط نظرية الهوية نتيجة لذلك بمظاهر نفسية وسوسيولوجية خاصة بسلوك الجماعة، وهي مرحلة تحليلية متقدمة من حيث تفسيرها للهويات الفردية ضمن السياقات الاجتماعية المحيطة بها.

وفيما بعد انتقلت الدراسات الخاصة بالهوية إلى علم الاجتماع وبشكل خاص في ضوء الجهود التي ارتبطت بنظريتي الدور السوسيولوجية ونظرية الجماعة المرجعية، وذلك من خلال كتابات بعض علماء الاجتماع مثل روبرت ميرتون ونيلسون فووت Robert Merton & Nelson Foote. بالنسبة لروبرت ميرتون صاحب نظرية الجماعة المرجعية Reference Group Theory فقد ركز على الكيفية التي تتشكل بها هوية الفرد عبر الجماعة التي ينتمي لها، ويحدد من خلالها قيمه ومعاييره. ولقد ساعدت هذه النظرية على ملأ الفراغ الناجم عن تركيز علماء النفس على الجوانب الذاتية من خلال الانتباه لانتماءات الفرد الخارجية ومدي تأثيرها عليه في تشكيل هويته. وهو الدور نفسه الذي قام به فووت من خلال تناوله الهوية عبر الأدوار المختلفة التي يمارسها الفرد في حياته ويرتبط بها، حيث تصبح هوية الفرد ما يقوم به ويمارسه من أدوار اجتماعية مختلفة.

ويلفت النظر في التحليلات السابقة تركيزها على النطاق التحليلي المحدود سواء أكان العالم الذاتي للأفراد أو النطاق الجمعي الصغير. وتوافقا مع هذا التوجه قدمت نظرية التفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism تصورات جيدة في سياق تركيزها على النطاق المحدود للتفاعل الاجتماعي Micro-Scale Social Interaction. وتفيد نظرية التفاعلية الرمزية في التعرف على المعاني التي يشكلها الأفراد من خلال تفاعلاتهم مع الآخرين المحيطين بهم. ومن عيوب هذه النظرية أنها تركز على التفسيرات الخاصة بالأفراد أكثر من ارتباطها بالبناء الاجتماعي وتأثيراته عليهم. فالأفراد وفقا لهذا النظرية هم الذين يخلقون المعاني المختلفة في سياق تفاعلاتهم اليومية، ومن خلال ذلك يؤسسون ذواتهم وهوياتهم المختلفة أيضا.

ومن أبرز علماء هذه النظرية إرفين جوفمان Erving Goffman، وبشكل خاص في كتابه الشهير "تجليات الذات في الحياة اليومية" The Presentation of Self in Everyday Life الصادر عام 1959 (حول مراجعة للأسس الخاصة بالهوية من الناحية السكيولوجية الاجتماعية وبشكل خاص مدخل الإدراك أو التعلم الاجتماعي Social Cognition والتفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism ، إضافة إلى تناول المداخل السيكولوجية والسوسيولوجية والعبر تخصصية Interdisciplinary، أنظر Howard 2000، وأنظر أيضا Bosma and et al 1995).

ويتفاوت تناول الهوية ما بين الوحدات الكبرى على المستوى الماكرو Macro، وما بين الوحدات الصغرى على المستوى المايكرو Micro، إضافة إلى الوحدات المتوسطة الواقعة فيما بينهما Meso. ففي دراسة Grotevant وآخرين يتناول كيفية تشكيل الهويات المتبناة Adoptive Identities بالنسبة للمراهقين الذين تم إجراء مقابلات متعمقة معهم في ولايتي مينيسوتا وتكساس في الولايات المتحدة الأميركية ضمن مشروع يتعلق بدراسة التبني The Minnesota-Texas Adoption Research Project. وتتعدد الوحدات التحليلية في دراسته ما بين الأبعاد الخاصة بالنواحي النفسية والعقلية وتلك المتعلقة بالسياقات الأسرية إضافة إلى السياقات الاجتماعية المحيطة والتي تؤثر على كل من المراهقين والأسر. وكما يشير عنوان الدراسة الفرعي فإن الهدف منها يتمثل في محاولة الإجابة على الطرق التي تشكل من خلالها السياقات الأسرية وتلك المحيطة بها الهويات والمسارات الجديدة للمراهقين.

ويبين Cerulo تحول الاهتمام في دراسات الهوية من التركيز على المستوى الميكروسوسيولوجي إلى المستوى الماكروسوسيولوجي وذلك من خلال التحول من الدراسات التي يقوم بها علم النفس الاجتماعي والتفاعلية الرمزية إلى الدراسات الجديدة التي سادت في أعقاب السبعينيات من القرن الماضي وركزت على دراسات النوع والعرق والطبقة. فالتحول تم من خلال البعد عن التركيز على هوية الفرد إلى الهويات الجمعية الصاعدة. وفي هذا السياق يرى Cerulo بوجود ثلاثة عوامل ساعدت على ذلك التحول هي: صعود الحركات الاجتماعية والقومية خلال العقود الثلاثة الماضية التي تركز على الفعل الجمعي والسياسي، دراسة التوحد الجمعي والابتعاد عن التركيز على الذات الفردية، الانتشار الواسع لتكنولوجيا الاتصال الحديثة وأثر ذلك على بللورة الهويات الجديدة الصاعدة وعلى انتشار الاتصال الافتراضي الذي لا يتطلب الوجود الفيزيقي لأطراف عملية الاتصال (أنظر ص ص 385–386، وأنظر أيضا Balfour 2005). وفي هذا السياق يتناول Langman 2005 الظهور الجديد للحركات الاجتماعية في سياق المجتمعات الافتراضية الجديدة عبر الإتصال عبر الإنترنت ووسائطها الجديدة، وأثر ذلك على

ظهور الهويات الجديدة التي ارتبطت بالتوجهات ما بعد الحداثية مثل الحركات النسوية والحركات المطالبة بالحريات الجنسية، وحق الإجهاض للنساء واستخدام موانع الحمل والحركات البيئية والمطالبة بحقوق المثليين (أنظر ص 43، وحول العلاقة بين الهوية والتكنولوجيا الحديثة الخاصة بالاتصال أنظر Cerulo, pp. 397-399، وأنظر أيضا Fuglsang 2005).

ويمكن القول بأن دراسات الهوية تراوحت بين التركيز على دور الذات في تحديد انتماءاتها المختلفة، وبشكل خاص من خلال تفسيراتها لعلاقاتها مع أفراد الجماعة المحيطة بها، وبين ارتباطها بجماعات إنسانية بعينها تعبر عن تمثلها لأهدافهم وقيمهم وتوجهاتهم. وهو ما أدى في النهاية إلى قيام بعض علماء الاجتماع بتفسير ظهور الهويات من خلال البني الاجتماعية للأفراد التي تحدد توجهاتهم وتشكل انتماءاتهم مثل شيلدون ستريكر Sheldon Stryker و بيتير بيرك Peter Burke.

وعموما فإن الذات Self تمثل إحدى القضايا الهامة في النظرية السوسيولوجية، ورغم اهتمام النظرية الاجتماعية بالوحدات التحليلية الكبيرة مثل الأسرة والجماعة والطبقة إلا أن الذات الفردية يظل لها أهمية خاصة للنظرية الاجتماعية من ناحية ما تمثله من أهمية نتيجة علاقاتها بالهويات المشكلة والأبنية الاجتماعية المختلفة التي تمثل بالنسبة لها بيئة التشكل والنمو والتطور. فالذات هى النواة الأولى في المجتمع التي تتعرض لجملة تأثيرات مختلفة ومتنوعة، كما أنها تمارس هى الأخرى أدوار تأثيرية مختلفة ومتفاوتة، كما أنها ليست كائنا مستقبلا فقط لكنها أيضا كائن فاعل ومؤثر. ونحن لا نقصد بالذات هنا تناولا على مستوى العمليات السيكولوجية المختلفة، رغم أهمية ذلك، لكننا نقصد الذات الفاعلة اجتماعيا المشتبكة ضمن السياقات الاجتماعية المحيطة بها والمؤثرة عليها (حول البناء الاجتماعي للذات وتأثير العمليات الاجتماعية على تكوينها أنظر Newman 2000, pp.102-105، وحول تشكل الذات من الجوانب المعرفية والقوى الاجتماعية الأخرى المؤثرة عليها أنظر Cooley 1902 and Mead 1934، وأنظر أيضا Alder and Alder 1989 اللذان يكشفان عن دور السياق الإجتماعي والإعلام في تآكل الذات مقابل السياق المحيط).

ويحاول كل من Stets and Burke تقديم الأسس المختلفة المرتبطة بنظرية الهوية والنظرية الاجتماعية للهوية من خلال الوقوف على الاختلافات فيما بينهما والتي ترتبط بنطاق التركيز الخاص بكل نظرية أكثر منها اختلاف في النوع بين النظريتين. كما يحاولان أن يكشفا في النهاية أنه من خلال التوليف فيما بين النظريتين يمكن التوصل لنظرية عامة عن الذات. ويتوصل Stets and Burke إلى أن كلا النظريتين يرتبطان بجوانب على قدر كبير من الأهمية والتكامل؛ فبينما

تركز نظرية الهوية على الأدوار التي يقوم بها الفرد تحقيقا لهويته، فإن النظرية الاجتماعية للهوية تركز على كينونة الفرد ووضعيته الاجتماعية. وهما يريان أن كينونة الفرد وما يقوم به تمثل جوانب هامة بالنسبة لهوية الفرد، ومن خلال ذلك يريان بإمكان الدمج فيما بين النظريتين الأمر الذي ينتهي باستخلاص هام يرى بأن "مشاركة الأفراد تصل لمستوياتها القصوى عندما يرتبطون بكل المستويات الثلاثة المجردة ونعني بها الجماعة، الدور، والفرد." (Stets and Burke, P.224).

ولعل ذلك يكشف عن صعوبة التركيز على جانب دون آخر فالفرد هو وحدة البناء المجتمعية الأساسية لكنه لا يستطيع أن يعيش بمفرده بدون الانتماء لجماعة أو جماعات اجتماعية معينة، وبدون أن يكون له دور محدد ضمن أطر هذه الجماعة/الجماعات. ويضيف Stets and Burke بأن "الذات في كل من النظرية الاجتماعية للهوية ونظرية الهوية تكون إنعكاسية Reflexive من حيث أنها تستطيع أن تدرك نفسها بوصفها هدف أو موضوع، كما يمكنها أن تصنف أو تبوب أو تعين نفسها بطرق محددة في ضوء علاقاتها بالتصنيفات أو التحديدات الاجتماعية الأخرى. وتسمى هذه العملية بتصنيف الذات Self Categorization في نظرية الهوية الاجتماعية، كما تسمي بالتعيين Identification في نظرية الهوية، ومن خلال كل من هاتين العمليتين يتم تشكيل الهوية." (Stets and Burke, P.224).

ووفقا لـــ Hogg and Abrams فإن الهوية في نظرية الهوية الاجتماعية تمثل معرفة الشخص بأنه أو بأنها ينتمي إلى تصنيف اجتماعي أو جماعة اجتماعية. ووفقا لذلك فإن هناك عناصر يحدد من خلالها الفرد مدى تماثله مع غيره من الأفراد الآخرين في ضوء تشابه الذات الخاصة به معهم. وتثير هذه المسائل القدرة على تحديد العناصر التي تجعل الشخص يرى نفسه متشابها مع البعض ومختلفا مع البعض الآخر بما يساعد على التحديد الإمبيريقي، ويصل بنا إلى تحديد العناصر الداخلة في تشكيل الهوية وطريقة تطورها عبر الزمن (حول نظرية الهوية الاجتماعية وتأكيدها على أهمية السياقات المحيطة في تشكيل الهوية أنظر (Howard 2000, p.369). وهو يرى أن هذه النظرية ترتكز على عالمين اجتماعي Social ينتج من خلال عضوية جماعات مختلفة وشخصي Personal ينتج من خلال قدرة الفرد على تمييز نفسه عن غيره من الأشخاص الآخرين. ورغم أنه يرى أن الجانبين يقعان على نهاية متصل فإن Deaux 1993 قد كشف عن تفاعلهما معا بدون تعارض وصعوبة الفصل فيما بينهما. وهنا يمكن التعرف على دور الجانب الشخصي في تدعيم الذات وإكسابها جوانب إيجابية حتى في مواجهة الآخرين، وهو أمر ينتقل بالفرد من الحالة الذاتية إلى مواجهة الجماعات الأخرى ومحاولة التمايز عنها وإكساب الجماعة مظهرا إيجابية.

إن العمليتين الهامتين اللاتين تشتمل عليهما عملية تشكيل الهوية الاجتماعية

وفقا لـــ Hogg and Abrams يشملان تصنيف الذات Self-Categorization والمقارنة الاجتماعية Social Comparison. وهما عمليتان يتشابهان بدرجة أو بأخرى مع ما ذكره كل من هنري تاجفيل وجون تيرنر فيما سبق، وإن كان الأخيران ينطلقان من منظور علم النفس الاجتماعي من حيث تركيزهما على محاولة التعرف على الأسس النفسية للجماعات الاجتماعية.

ومنذ ثمانينيات القرن الماضي وحتى الآن أصبح موضوع الهوية هو الموضوع الأثير للعديد من التخصصات مثل النوع الاجتماعي، والعرق، والدين، والجماعات الإثنية، والهجرة، والحركات الاجتماعية، والثقافة. واتسعت قائمة المفكرين والعلماء الذين تعاملوا مع موضوع الهوية لتشمل: بيير بورديو، جورجين هابيرماس، بول ريكور، فيرناند بروديل، أنتوني جيدنز، أماراتيا سين، تشارلز تيلي، ليفي ستروس، وآخرين غيرهم. ولم يعد تناول الهوية يقتصر فقط على علماء النفس والاجتماع والفلسفة لكنه اتسع ليشمل علماء السياسة ورجال الدين والإعلاميين والصحفيين، خاصة بعد أن أصبحت الهوية موضوعا لصراعات كونية هائلة ومواجهات حادة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أشهر كتابين ظهرا في العقد الأخير من القرن العشرين وهما "نهاية التاريخ" لفوكوياما، و"صراع الحضارات" لهنتنجتون، ، كانا في العمق منهما تعبيرا عن مستوى جديد من الهويات الكونية المتطاحنة. فالأول يقف بالتاريخ عند الهوية الرأسمالية بمجتمعاتها المتسيدة، والثاني يرسم صورة الصراعات الكونية القادمة من خلال الهويات الثقافية والدينية.

وليس أدل على الاهتمام الواسع المدى بموضوع الهوية سوى ظهور دوريتين متخصصتين في دراسة هذا الموضوع أولهما: الهويات:دراسات كونية في الثقافة والقوة Identities: Global Studies in Culture and Power الذي ظهر العدد الأول منها في عام 1994، وتهتم هذه الدورية بدراسة العلاقة بين الهويات العرقية والإثنية والقومية وتراتب القوة ضمن السياقات المحلية والكونية. أما الدورية الثانية: الهويات الاجتماعية: دورية خاصة بدراسة العرق والدولة والثقافة، Social Identities: Journal for the Study of Race, Nation and Culture والتي ظهر العدد الأول منها في عام 1995، فإنها تتعلق بدارسة كيفية تشكيل الهويات المؤثرة اجتماعيا والتحولات المرتبطة بها.

لقد توسع مفهوم الهوية وزاد استخدامه بشكل كبير سواء على المستوى العلمي من قبل العلماء والمفكرين والفلاسفة أو على مستوى الحياة اليومية من قبل الأفراد والجماعات والسياسيين، وأدى ذلك في النهاية لإضعافه وعدم الاستفادة منه نظريا ومنهجيا. فإذا كان كل شيء يرتبط بالهوية فما قيمة تسمية الأشياء والظواهر بمسميات ومفاهيم أخرى؟ وإذا كانت الهوية تتسم بالتركيب والبنينة Structuration فكيف يمكن الوقوف عند بعض الملامح الجوهرية Essentialist التي تتميز بها الظواهر الاجتماعية المختلفة؟ كما أنه كيف يمكن لنا تفسير الهويات التي تنبثق من

خلال قوى خارجية أعلى وأقوى من التابعين لها مثلما الحال مع ما يقوم به السياسيون ورجال الدين تجاه الجماهير والشعوب؟

وفي هذا السياق فإن للهوية بعدان أولهما بعد يتعلق بالممارسة اليومية Practice وبعد يتصل بالجانب التحليلي Analysis. والبعد المرتبط بالممارسة هو البعد الأكثر تأثيرا مثله في ذلك مثل المفاهيم الأخرى الهامة كالعرق والنوع والطبقة. فالهوية ترتبط بجوانب الحياة اليومية من خلال الإرتباط بجماعة معينة والتحيز لها والتعبير عنها وعن قيمها. كما أن لها قدرات سياسية هامة من ناحية عمليات الحشد التي يقوم بها القادة والسياسيون من أجل حشد الجماعة وتوجيهها الوجهة المعينة التي يريدونها. ولا يعني ذلك غياب استخدام البعد التحليلي؛ فبقدر الاستخدام اليومي للهوية بقدر الاستخدام التحليلي لها؛ فهما جانبان متلازمان وغير منفصلين. ويعود تنوع واستشراء الجانب التحليلي لمفهوم الهوية إلى تجاوز التصورات النظرية الخاصة بها والتي تحاول إضفاء الطابع المتعين لها Reification والتعامل معها بوصفها غير ثابتة التكوين، متشظية وقابلة للتغير والتحول عبر الزمن (أنظر Brubaker and Cooper, pp.5-6، وأنظر أيضا Burke 2006).

والسؤال الهام الذي يهمنا هنا هو: ماذا يعني المفكرون والمحللون بمفهوم الهوية عندما يستخدمونه؟ وما هي الأبعاد التحليلية والنظرية التي ينطوي عليها هذا المفهوم؟ ويحدد كل من Brubaker and Cooper مجموعة من الجوانب المختلفة لهذا المفهوم من خلال السياقات المختلفة التي يتم من خلالها استخدامه والتعامل معه؛ وهي جوانب تساعد على المقاربة العملية والمنهجية والنظرية لهذا المفهوم رغم تعدد الجوانب المختلفة التي تنطوي عليها، وهي تعددية ترتبط كما بينا فيما سبق بمرونة هذا المفهوم والتحولات المختلفة التي ترتبط به عبر الزمن. وتشمل كيفية فهم هذا المفهوم وطريقة التعامل معه ما يلي:

"1- فهم الهوية بوصفها أرضية أو أساس للفعل الاجتماعي أو السياسي، ويأتي هذا الفهم للهوية كمحاولة لتجاوز المصالح الذاتية والجماعية إلى مستوى أعمق وأوسع من المصالح العامة المفترضة.

2- فهم الهوية بوصفها ظاهرة جمعية محددة، وهو ما يعني أن الهوية تشير إلى التشابه الواضح والجوهري بين أعضاء الجماعة الواحدة سواء على المستوى الموضوعي أو على المستوى الذاتي. وتظهر تجليات هذا التشابه من خلال التماسك والوعي والفعل الجمعي الذي يرتبط بأعضاء الجماعة المشتركة في الهوية.

3- فهم الهوية بوصفها جانب رئيس من الشخصية الفردية أو الجماعية أو بوصفها حالة جوهرية للوجود الإنساني؛ والهوية تشير هنا إلى شيئ عميق ورئيس وقار أو أساسي، من هنا فإنها لا تشتمل على ما هو سطحي وعابر ومؤقت

ومتحول أو معتمد.

4- فهم الهوية بوصفها نتاج للفعل الاجتماعي أو السياسي؛ والهوية هنا تكشف عن التطور العملياتي والفعال للفهم الجمعي للذات والتماسك أو الجمعية التي تجعل من الفعل الجمعي إمكانية متاحة.

5- فهم الهوية بوصفها منتج قابل للزوال يتشكل من خطابات عديدة ومتنافسة؛ والهوية هنا تكشف عن الطبيعة غير المستقرة والمتعددة والمتغيرة والمتشظية للذات المعاصرة. وهذا الاستخدام موجود بشكل خاص في الأدبيات المتأثرة بفوكو، وما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة"Brubaker and Cooper, pp. 7-8، وأنظر أيضا Rousseau et al 2005).

وبشكل عام فقد انتقلت الجوانب الحديثة في تناول الهوية من التركيز على النزعة الجوهرية الطبيعية التي ترى الجماعة بناء طبيعي جوهري مرتبط بالسمات الفيزيولوجية والسيكولوجية والموقع الجغرافي إلى التركيز عليها بوصفها منتج اجتماعي بنيوي؛ فالهوية وفقا لذلك بناء اجتماعي أكثر من كونها حاصل بناء الذوات الفردية. وهو المنطق نفسه الذي جعل البعض ينتقل بالهوية إلى تأسيس ما بعد حداثي يرفض التعامل مع الهويات ككل واحد متجانس ناجم عن خبرات جمعية موحدة. ووفقا للمدخل البنيوي الاجتماعي فإن الهوية تتأثر بجوانب كثيرة تتعلق بالبنى الاجتماعية المحيطة وتتغير بها، ويأتي على رأسها التغيرات اللغوية والأداء الاجتماعي. ورغم أهمية المدخل البنيوي فإن البعض مثلSmith 1991 قد بينوا من خلال مداخل نظرية متوسطة أهمية الجمع بين البنيوية الاجتماعية والعناصر الجوهرية Essentialist في التحليل الخاص بالهوية القومية. فهناك عناصر نفسية قارة مسبقة قبلية تتعلق بالهوية يتم ربطها بعناصر بنيوية خاصة بالوعي الجمعي والأيديولوجيا والجوانب الرمزية الأخرى إضافة للعناصر النفسية الجمعية (أنظر أيضا Rusciano 2003). ويعني ذلك أن الهوية وفقا لـــ Smith تنطوي على:

1- عناصر قبلية طبيعية أساسية.

2- عناصر اجتماعية تتعلق بالوعى الجمعي والجوانب الأيديولوجية والرمزية المرتبطة به.

3- عناصر سيكولوجية اجتماعية تتبع من حاجة الأفراد للنزعة الجمعية.

وفي هذا السياق يمكن القول بأن العناصر التي حددها Smith تقارب توجهنا في هذا الدراسة بما يجعلنا نركز على عناصر البنية الاجتماعية للجامعة الأميركية وطلبتها، وأيضا على جوانب الوعي المرتبط بها والعناصر السيكولوجية والذاتية التي تغذيها. كما أن تناول الهوية والتعامل معها بالنظر إلى مستويين يضعانها بين الثبات والتغير، فهناك مستوى يتعامل مع الهوية بوصفها قارة وثابتة وتنطوي على معاني عبر ذاتية جماعية لا تتغير، وهناك مستوى آخر يضعها

ضمن أطر مابعد حداثية قابلة للتغيير والتحول عبر الزمن.

ويحدد Brubaker and Cooper مجموعة من الافتراضات ترتبط بالهوية على النحو التالي:

1 -شيئ يمتلكه كل الناس، أو يسعون لامتلاكه، أو يبحثون عنه.

2 -شيئ يجب أن تمتلكه كل الجماعات (على الأقل بعض الجماعات مثل الجماعات الإثنية والعرقية أو القومية).

3 -شيئ يمتلكه الناس والجماعات بدون الوعي بامتلاكه، وفي ضوء ذلك فالهوية شيئ يجب اكتشافه، ويمكن للفرد أن يخطئ في تحديده.

4 -وتتضمن الأفكار القوية عن الهوية الجمعية أفكار قوية عن الحدود والتجانس، ولهذا تتضمن درجة كبيرة من الجماعية، "وهوية" أو تشابه بين أعضاء الجماعة، وتمايزا حادا بين غير الأعضاء المنتمين لها، وحدودا واضحة بين داخل الجماعية وخارجها. (ص. 10).

ويفرق الكاتبان بين ما يقولان به هويات قوية Strong Identity وهويات ضعيفة Weak Identity، وترتبط الأولى بالهويات القديمة الراسخة بينما ترتبط الثانية بالمعاملات الحديثة للهويات في إطار الحياة اليومية الممارسة (أنظرص ص 10–11). كما يفرقان بين الهوية Identity وبين فهم الذات Self-Understanding، من حيث أن الأولى تتسم بالعمق والاستمرارية والموضوعية والثانية تتسم بالسطحية والتغير والذاتية (أنظر ص ص 18–19). وبشكل عام يركز الكاتبان على المعنى البنيوي Constructive للهوية، بوصفها منتجا تاريخيا وليس منتجا قبليا سابقا Primordial. ورغم ذلك فإنهما يمنحان العوامل الذاتية دورا هاما في تشكيل الهوية بجانب العوامل الموضوعية. وفي هذا السياق تساعد هذه التوجات النظرية السابقة وبشكل خاص توجهات كل من Smith و Brubaker and Cooper على موضعة الهوية ضمن سياقاتها وأطرها الاجتماعية المتعارف عليها بدون إضفاء معالم متعالية عليها، وخارجة عن الأطر الاجتماعية التي تنتمي إليها، وبدون تجاهل الذات/الذوات الفاعلة في تشكيلها سواء بوعي أو بدونه.

رابعا: تساؤلات الدراسة

تسعى الدراسة الراهنة إلى الإجابة على مجموعة التساؤلات التالية:

1 -هل تشكل العربية جزءا حيويا ومؤثرا على بنية الهوية في العالم العربي؟

2 -وإذا كانت الإجابة بنعم، ما هي الأسباب التي تؤدي لجعل العربية تحتل مكانا متميزا بالنسبة للهوية؟

3 -ما هو موقف طلبة الجامعة الأميركية من التدريس باللغة الإنجليزية؟

4 -ما هو حجم التأثيرات الناجمة عن التدريس باللغة الإنجليزية على الهوية من خلال المؤشرات التي تكشف عن الوعي بالقضايا الوطنية والعربية المختلفة؟

5 -هل هناك أية تناقضات بين التعلم باللغة الإنجليزية وبين الانتماء العربي والإسلامي؟

6 -ما موقف الطلبة من القضايا التالية: العولمة، ثورة يناير المصرية، العلاقات العربية العربية، الموقف من الصراع العربي الإسرائيلي، الموقف من الولايات المتحدة، الموقف من الوحدة الوطنية والعلاقات بين المسلمين والمسيحيين؟

خامسا: المنهج واستراتيجية التحليل

تنتمي هذه الدراسة إلى الدراسات الاستطلاعية السوسيولوجية، وتعتمد على عينة من طلبة الجامعة الأميركية في القاهرة، وهي عينة مقصودة وفقا للطلبة المتاحين الذين وافقوا على القيام بهذه المقابلة بعد عرض الموضوع عليهم. وفي الواقع فإن الحصول على أفراد العينة كان من الصعوبات الشديدة التي واجهت الباحث، وذلك بسبب عدم رغبة الكثير من الطلبة إجراء المقابلة، وصعوبات دخولنا الجامعة الأميركية. واعتمدنا على عدة طرق من أجل الحصول على هذه العينة:

1 -بعض الأصدقاء الذين وفروا من خلال الاتصالات الشخصية بعض الطلبة.

2 -الطلبة أنفسهم الذين وافقوا على إجراء المقابلات، حيث عرض بعضهم المساعدة في توفير زملائهم الآخرين من الجامعة الأميركية.

3 -مراسلة الأقسام الأكاديمية عبر البريد الالكتروني، وقد ساعد ذلك في توفير بعض طلبة الدراسات العليا.

وسوف ترتكز الدراسة على جانبين من المادة العلمية: أولهما الدراسات السابقة والتي يغلب عليها اللغة الإنجليزية، إضافة إلى المادة الأولية الأصيلة التي سوف نحصل عليها من خلال مقابلة مفتوحة تعتمد على مناقشة مجموعة من القضايا الهامة المتعلقة بالعلاقة بين الهوية والتدريس باللغة الإنجليزية والتي تشمل ما يلي:

1 -الهوية بين رؤية الذات والرؤية الاجتماعية لها.

2 -الموقف من التدريس باللغة الإنجليزية.

3 -تأثيرات اللغة الإنجليزية على الهوية الفردية والجماعية.

4 -التمايزات الخاصة بالتعلم بلغة غير العربية، والموقف المجتمعي من ذلك.

5 -أشكال التعارض والتوافق بين التدريس بهذه اللغة والانتماء للهوية المصرية والعربية والدينية.

6 -الموقف من بعض القضايا الاجتماعية والسياسية المحلية والكونية.

وتم اختيار عينة بلغت ما يقرب من 35 طالبا وطالبة من كل من أقسام الاجتماع وعلم النفس والاتصال والإعلام والأنثروبولوجيا في الجامعة الأميركية بالقاهرة، وينبع سبب اختيار هذين الأقسام مقارنة بالأقسام الأخرى مثل الهندسة وإدارة الأعمال بسبب الدور الحيوي الذي تلعبه اللغة الإنجليزية في بنية عقل الطالب وما يرتبط بذلك من تغيير لرؤيته للعالم وبالتالي ما تقوم به من أدوار هامة ومؤثرة في إعادة تشكيل الهوية الخاصة به. وسوف تشتمل استمارة المقابلة الكيفية على القضايا السابقة من خلال إجراء مقابلة مفتوحة متعمقة للتعرف على آراء الطلبة تجاه هذه القضايا المختلفة. ويمكن القول بأن التحليل النهائي للبحث سوف يعتمد على جانبين الأول كمي يرصد البيانات الأساسية الخاصة بالطلبة مثل: العمر والسكن ونوع التخصص الدراسي وعدد أفراد الأسرة ودخلها وعمل الأبوين ومستواهما التعليمي وسبب الالتحاق بالجامعة الأميركية...إلخ، والثاني كيفي يعتمد على تأكيد النتائج من خلال ما يقوله الطلبة ذاتهم أثناء المقابلات التي سوف تجرى معهم. من هنا فإن الدراسة سوف تستند في بعض تحليلاتها إلى جوانب كمية وفي البعض الآخر إلى جوانب كيفية، مع إمكانية المزج فيما بينهما في مراحل تحليلية أخرى.

سادسا: نتائج الدراسة

أولا: البيانات الأساسية للعينة

1 -جاءت العينة متنوعة بدرجة كبيرة من حيث التخصص لتشمل عشرة طلاب من قسم الاجتماع وعشرة من قسم علم النفس وإثنى عشرة من قسم الاتصال والأعلام وثلاثة طلاب من قسم الأنثروبولوجيا، كما يكشف عن ذلك الجدول رقم (1).

جدول رقم (1) توزيع الطلبة وفقا للتخصص

عدد الطلبة في كل قسم	التكرار	النسبة
الاجتماع	10	%28.57
علم النفس	10	%28.57
الاتصال والإعلام	12	%34.29
الأنثروبولوجيا	3	%8.57
المجموع	35	%100

2 -جمعت عينة الدراسة بين طلبة المرحلة الجامعية والمرحلة ما بعد الجامعية التي تتعلق بالدراسات العليا، حيث اشتملت على إجمالي 10 طلاب بواقع ثلاثة لكل من الأقسام الثلاثة الأولى، وطالب واحد من قسم الأنثروبولوجيا، وذلك وفقا للجدول رقم (2).

جدول رقم (2)
توزيع العينة وفقا للمرحلة الدراسية

المرحلة الدراسية	التكرار	النسبة
جامعية	25	%71.43
ما بعد جامعية (عليا)	10	%28.57
المجموع	35	%100

3 -كما جمعت العينة بين الذكور والإناث بواقع 15 ذكرا و20 أنثى، وفقا للجدول رقم (3)

جدول رقم (3)
توزيع العينة وفقا للنوع

النوع	التكرار	النسبة
ذكر	15	%42.85
أنثى	20	%57.14
المجموع	35	%100

4 -جاء أفراد العينة بين الفئة العمرية 19-26 عاما، وهي مسألة طبيعية تتسق مع كون معظم أفراد العينة ذكورا وإناثا إما في مرحلة الدراسة الجامعية وإما حديثي التخرج في بدايات الدراسات العليا، مرحلة الماجستير. ورغم وقوع أفراد العينة في هذه الشريحة العمرية الشابة صغيرة السن إلا أن التفاوت في الوعي بين طلبة المرحلة الجامعية وطلبة الدراسات العليا كان واضحا في الكثير من الاستجابات كما سوف نوضح لاحقا، رغم الفروق العمرية الطفيفة فيما بينهما والتي لا تتجاوز السنة أو السنتين.

5 -جاءت معظم المناطق السكنية لأفراد العينة في مدينة القاهرة والجيزة بحكم موقع الجامعة الأميركية، وذلك في المناطق الراقية مثل المنيل، والمهندسين، ومصر الجديدة، ومدينة نصر، ويلفت النظر ارتفاعا كبيرا في نسبة من يقطنون القاهرة الجديدة المنطقة الأكثر تعبيرا عن الثراء في مصر الآن.

6 -لم يختلف حال الوالدين التعليمي، فقد أكد كل أفراد العينة على حصول الوالدين على تعليم جامعي، وإن كان يلفت النظر حصول جيل الوالدين على تعليم جامعي حكومي، رغم وجود قلة قليلة كشفت عن حصول الوالدين إما على درجة جامعية من الجامعة الأميركية في القاهرة، او من خارج مصر، وبشكل رئيس من الولايات المتحدة أو من بريطانيا.

7 -رغم صغر حجم العينة من ناحية العدد إلا أن المقابلات قد جاءت على درجة عالية من الثراء بشكل عكس قدرا كبيرا من الوعي بين طلبة الجامعة الأميركية سواء في مرحلة الدراسة الجامعية أو في مرحلة الدراسات العليا، كما سوف نوضح لاحقا.

ثانيا: النتائج التحليلية من واقع استجابات أفراد العينة

1 -الوضع الاجتماعي لأفراد العينة

أبرزت معظم حالات الدراسة ارتفاع مستوى الدخل العائلي، فالكثير من الآباء إما يعملون في أعمال خاصة، وإما يعملون في مهن مثل الهندسة والطب على وجه الخصوص، وإما يعملون في وظائف حكومية قيادية عالية المستوى والمكانة بما يكفل مستويات دخل عالية، أو في بعض الشركات الخاصة والبنوك الأجنبية في مصر. ولعل هذا الدخل العالي والمستوى التعليمي للوالدين هو ما يساهم في حصول الأبناء على مستويات تعليم عالية سواء في مرحلة التعليم ما قبل الجامعي أو التعليم الجامعي متمثلا في الجامعة الأميركية في القاهرة. فقد أشارت معظم حالات الدراسة إلى نوعية المدارس الفاخرة التي التحقت بها أثناء المرحلة الثانوية، وهي مدارس الصفوة في مصر من ناحية نوعية الطبقات الاجتماعية اللاتي تلتحق بها، وغلاء أسعارها مقارنة بالمدارس الخاصة الأخرى، ناهيك عن المدارس الحكومية المتواضعة، إضافة إلى لغة التدريس الإنجليزية الخاصة بها. وتكشف المقابلات التي أجريت مع معظم حالات الدراسة عن وعي وإدراك تامين بطبيعة الوضعية الاجتماعية التي ينتمي لها الطلبة سواء أكانوا في المرحلة الجامعية أو مرحلة الدراسات العليا وهو ما أفضى بهم إلى توصيف وضعيتهم الطبقية التي تنوعت بداية بالطبقة الوسطى العليا وحتى مستويات العليا المختلفة أي عليا دنيا وعليا وسطى وأخيرا عليا عليا.

ورغم الدور الذي لعبه الدخل في طريقة تصنيف الطلبة لأنفسهم طبقيا واجتماعيا، فإن هناك بعض الحالات التي أبرزت الوضع المهني للوالدين مثل الطب والهندسة والتدريس الجامعي رابطين في ذلك بين الدخل وبين الدور المجتمعي، وعلى حد قول أحد الطلبة:

الموضوع مش موضوع فلوس وبس، الموضوع موضوع طبيعة العمل career إللي بيقوم بيه بابا، إنت عارف طبعا إن فيه ناس بتكسب بسهولة جدا في مصر، لكن والدي بيأدي دور مهني مهم، بيخدم الناس والمجتمع بيه

ويفرض الوضع الاجتماعي حالة من التجانس في العلاقات بين الطلبة، ففي ضوء ارتفاع مصاريف الالتحاق بالجامعة الأميركية يصبح من غير المتصور وجود آخرين من خارج الوضعية الاجتماعية الثرية التي تنتمي لهذه الجامعة، وهي مسألة يعيها كافة أفراد العينة الذين يعرفون تماما معنى الالتحاق بالجامعة والحصول على درجة علمية منها. والمسألة هنا ليست رهنا فقط بمصاريف الجامعة الأميركية في حد ذاتها لكنها ترتبط بسياق عام من الثراء تأتي مصروفات الجامعة كأحد عناصره، إضافة إلى مايرتبط بذلك من نمط الحياة ومستوى السكن والسيارة والسفر للخارج وغيرها من إمارات الثراء والعيش المريح التي تمايز بين الوضعية الاجتماعية لطلبة الجامعة الأميركية وغيرهم من الشرائح الاجتماعية الأخرى في مصر. وتبدو اللغة هنا كأحد آليات هذا التواصل المتميز بين هذه الشريحة من الأغنياء، فبغض النظر عن أنها لغة التعليم في الجامعة، فإنها أيضا رمزا من رموز المكانة وتعبيرا عن وضع اجتماعي متميز وتأطيرا لنمط محدد من العلاقات ومدخلا لجملة من المؤسسات.

وتخلق هذه الحالة من التجانس الاجتماعي، وربما عدم الاختلاط مع السياقات الاجتماعية الأخرى، إللهم إلا في مرحلة التدريب الجامعي أو العمل فيما بعد، حالة من "الفقر الأيديولوجي" في تناول الإشكاليات الاجتماعية المختلفة من قبل طلبة الجامعة الأميركية، رغم علمية التناول. فرغم سعادة كافة أفراد العينة بثورة الخامس والعشرين من يناير، وتأييدهم لها، إلا أنهم أكدوا على أن الشعب المصري يحتاج إلى إعادة تنشئة من جديد تنتقل به من حالة التخلف الحالية إلى حالة التقدم المرغوبة. ورغم صحة هذه الآراء بخصوص الشعب المصري والشرائح الاجتماعية الفقيرة منه، إلا أن طريقة التناول من قبل أفراد العينة أظهرت قدرا من البرود تجاه هذه النوعية من القضايا، وربما كان تعبير "طبقية التناول" هو الأفضل هنا من حيث إبرازه لطبيعة الموقع الطبقي والاجتماعي لهؤلاء الطلبة. ولأن الشيئ بالشيئ يُذكر فإن الكثير من الإصدارات العلمية للجامعة الأميركية التي تتعلق بالمجتمع المصري، رغم جودتها النظرية والمنهجية، تبدو غير مؤثرة في السياق الأكاديمي المصري، ربما لنشرها باللغة الإنجليزية من ناحية، واهتمامها بالقارئ الأجنبي من ناحية ثانية، وغيبة المسحة

الأيديولوجية التي تمنح القضايا الاجتماعية زخما وحرارة علمية من ناحية ثالثة.

لقد فسرت استجابات هؤلاء الطلبة لي الأسباب التي كانت تدفعني أنا وزميلي أثناء حضورنا المقرر الدراسي لأستاذ علم الاجتماع السياسي الشهير إلى التناول الأيديولوجي الحاد للقضايا المجتمعية المختلفة، بينما كان باقي طلبة الجامعة الأميركية يستخدمون حديثا علميا باردا؛ فقد كان كل منا ينطلق من موقف طبقي واضح سواء وعى بذلك أم لم يعي، كان كل منا يعبر عن مصالحه وما يرغب في تغييره.

لقد كشفت إحدى طالبات الدراسات العليا عن هذه المواضعات الاجتماعية المختلفة حينما التحقت بعملها الخاص بإحدى منظمات المجتمع المدني الخاصة بالتنمية المستدامة، ووجدت نفسها وجها لوجه مع فقراء المجتمع المصري الأمر الذي دفعها للتعاطف معهم والحديث مع والدتها حول عبثية شرائها لبعض الأشياء الغالية في الوقت الذي يحتاج فيه الفقراء للطعام والمسكن والملبس وغيرها من متطلبات الحياة الأساسية فأقنعتها والدتها بأننا يجب أن نستمتع بحياتنا طالما نقوم بأعمالنا المطلوبة منا، وبأننا لن نستطيع أن نغير كل شيئ في العالم الذي نوجد فيه. وبغض النظر عن نصيحة الأم فإن اللافت للنظر هنا أن الصدام المفاجئ من خلال طالبة الجامعة الأميركية والذي ولد لديها عاطفة الشفقة يعني أنها لم تواجه هذه العوالم من قبل، ويعني أن هناك هوية خاصة تشكلت في أحضان الثراء وبعيدا عن عوالم الفقراء. هذه الهوية ذاتها هي التي جعلت الآخرين في محيط هذا العمل يندهشون حينما علموا بأن هذه الطالبة هي إحدى خريجات الجامعة الأميركية التي تعمل بجد مثلهم، ولا تستخدم اللغة الإنجليزية، التي مارستها لسنين طويلة في حياتها، وهي مسألة هامة سوف نناقشها فيما بعد تتعلق برؤية الآخرين لطلبة الجامعة الأميركية.

2 -العلاقة بين رؤية الذات والسياقات الاجتماعية المحيطة بها:

تمثل الجامعة الأميركية حالة تعليمية لإطار ما بعد الحداثة في التوجهات مقارنة بأطر تعليمية واسعة الإنتشار تمثل حالة حداثية أو حتى تقليدية ما قبل حداثية في مؤسسات التعليم المصرية الأخرى، وبشكل خاص الجامعات الحكومية منها. وبالتأكيد فإن البنية مابعد الحداثية ممثلة في نوعية المدرسين والطلبة والأبنية والخدمات المقدمة تنعكس بدرجة أو بأخرى على الهوية المشكلة للطلبة بغض النظر عن اللغة المستخدمة في الحديث اليومي والتدريس. وهنا فإنه من الضروري الاهتمام بالعلاقة الجدلية بين الهوية والتنظيم، فالهوية تؤثر على التنظيم والعكس أيضا صحيح. وفي هذا السياق يمكن التعامل مع الجامعة الأميركية كتنظيم مشكل، بضم الميم وكسر الكاف لهويات الطلبة، ومشكل، بضم الميم وفتح الكاف، من تجميعهم.

ويمكن القول هنا بأن الطلبة، وبمجرد ولوجهم الجامعة الأميركية،

ينفصلون عن بيئات خارجية متخلفة وتقليدية ليعايشوا واقعا جديدا مغايرا تماما للعوالم الخارجية، أو بشكل أكثر دقة عوالم بقواعد جديدة مؤطرة بأطر مابعد حداثية تحاول القطع الزمني والمكاني مع الأطر الخارجية، وإن كانت بوعي أو بلا وعي، برغبة أو بلا رغبة، تتقاطع وتتماس معها. وإذا كانت حالة الانقطاع المكاني تبدو واضحة جدا في ميدان التحرير، المكان القديم للجامعة، فإن المكان الجديد، التجمع الخامس بالقاهرة الجديدة، يخلق تواصلا قويا بين الجامعة والمحيط الراقي الجديد الذي توجد فيه وتتواصل معه. وهذا يعني أن العلاقة بين الجامعة، المكان الراقي، وبين المحيط المكاني أصبحت أكثر تناغما وإنسجاما عما كان عليه الحال في ميدان التحرير؛ فقد أصبحت الجامعة بطلابها وأساتذتها، مكانا منعزلا عن سياق التخلف المصري العام، كما القاهرة الجديدة، بفيلاتها وقصورها ومجمعاتها السكنية المغلقة وسكانها الأثرياء، التي اختارت لنفسها العزلة المكانية عن القاهرة وعشوائياتها، وبالطبع عن فقرائها.

إن ما نعنيه هنا أن الهوية لا تنفصل عن طبيعة المكان الذي ننتمي إليه، ونمارس أدوارنا من خلاله. فعندما كنت أتعامل مع مكتبة الجامعة الأميركية في التحرير كنت أصطحب معي هويتي المرتبطة باللغة العربية وبالجامعات الحكومية وبالمكان الخارجي؛ ويعني ذلك أنني لم أكن من أبناء المكان الحاملين لتوجهاته والمنتمين لأطره العامة ما بعد الحداثية، رغم استخدامي له وتعاملي معه. وحتى لو كنت أتقن اللغة الإنجليزية وأتحدث بها مثل طلبة الجامعة الأميركية فإن هذا لن يجعل هويتي متناغمة مع هوية المكان، بقدر ما سوف يسهل تلاقي الهويات وليس ارتباطها وتفاعلها. وفيما بعد اتضحت هذه المسألة بدرجة كبيرة لي أثناء دراستي في الولايات المتحدة الأميركية حيث كانت اللغة الإنجليزية أداة تواصلي مع السياقات الأميركية المختلفة، وبشكل خاص السياق الجامعي، فكلما تعلمتها أكثر وأسرع، كلما تواصلت مع الهويات المحيطة بي وتعاملت معها بسهولة ويسر بدون أن يعني ذلك أنني أعيد تشكيل هويتي التي ظلت بدرجة أوبأخرى مختلفة عن هويات الآخرين المحيطين بي، بحكم الاختلافات الثقافية والمرجعيات المجتمعية.

والمسألة لا تقف فقط عند عنصر اللغة، ففي الوقت الذي تواصلت فيه مع الأميركيين من خلال اللغة وتعاملت معهم، رغم اختلافات الهويات، كان الوضع أكثر صعوبة بالنسبة لغيري من المصريين والعرب من المسلمين المتدينين، الذين ربما كان مستواهم اللغوي أفضل مني. فصعوبات التواصل مع هويات الآخرين في السياق الأميركي المحيط كانت تقف ضدها عوامل أخرى تتعلق بالدين وبالنظرة للآخر الأميركي المسيحي واليهودي على السواء. إن ما نعنيه هنا أن تشكيل الهويات مسألة أكبر من اللغة، رغم أهمية الأخيرة كأحد العوامل المشكلة لها ضمن العديد من العوامل الأخرى الهامة.

وإذا كان ولوجي للجامعة الأميركية يتم من خلال الهوية الخاصة بي التي

تجعلني في النهاية غريبا عن المكان وغير منتمي إليه، فإن طلبة الجامعة الأميركية ليسوا بغريبين عن المكان، ليس فقط بسبب التحاقهم به، ولكن أيضا لكونهم ملتحقين بسياقات أخرى قبلية ممهدة للإلتحاق بهذا المكان ما بعد الحداثي المرتبطة بالسياقات الغربية الكونية المتقدمة، مثل المدارس والأندية وعلاقات السفر بالخارج وفوق كل ذلك لغة التواصل التي تظهر من خلال الأحاديث مع الأصدقاء والشلة والأساتذة وغيرهم. ففي الكثير من المكالمات التي تمت بيني وبين طلبة الجامعة من أجل تحديد ميعاد المقابلات كانت مفردات اللغة الإنجليزية تفرض نفسها بشكل تلقائي من طرفهم على الحوار مثل "هاي Hi، باي bye، ماشي Ok، أراك See you"، وهي كلمات يتم تداولها بالتأكيد عبر ممارسات الحياة اليومية ربما بشكل أوسع مما تم معي في حضور القرناء والأصدقاء المتشابهين في الهويات. إضافة إلى ذلك فقد كان الحوار يتم فيما بيننا باللغة العربية التي لا تسعف الطالب أو الطالبة سواء في المرحلة الجامعية أو ما بعدها على التعبير بها مما يضطره/يضطرها إلى استخدام مفردات إنجليزية للتعبير عما يدور في عقله/عقلها. وهي مسألة تكشف عن دور اللغة الإنجليزية في تأطير القدرات العقلية من خلال تواصل استخدامها، وإن كان ذلك التأطير لا يتعارض مع الإلمام بالقضايا الاجتماعية المصرية، ولا يتعارض مع الإنتماء للوطن، وهي مسألة سوف نناقشها فيما بعد بخصوص الإلمام بالقضايا الوطنية ومدى الوعي بها.

وتتضح هذه الممارسات اللغوية بشكل كبير من خلال ملاحظاتي الشخصية لطلبة الجامعة الأميركية في المكتبة، فتقريبا هناك خلطة لغوية تجمع ما بين الإنجليزية والعربية أثناء حديثهم فيما بينهم. وهي مسألة تكشف بالتأكيد عن صعوبات خاصة بالتفكير بالعربية رغم الإستخدام اليومي لها في باقي السياقات الحياتية الأخرى بعيدا عن سياق الجامعة التعليمي. ورغم ذلك فإن السياقات التي تُنتج الهويات في حالة طلبة الجامعة الأميركية منسجمة مع بعضها البعض بدون تنافر أو تعارض، بينما كان تعاملي أنا مع مكتبة الجامعة الأميركية تعامل طارئ على هذا السياق، مجرد تعامل براجماتي مؤقت بحمولة الهويات الخاصة بي. وكما بدا تعاملي مع الجامعة الأميركية تعاملا غير منسجم مع هويتي فإن طلبة الجامعة أنفسهم سوف تبدو تعاملاتهم مع بعض السياقات في مرحلة العمل تعاملات غير منسجمة مع هوياتهم، وخصوصا إذا كانت تلك التعاملات تتم مع شرائح المجتمع المصري العادية أو الفقيرة، كما سوف نوضح فيما بعض.

لقد كشفت إحدى طالبات الدراسات العليا عن هذا الانسجام في تشكيل الهوية من خلال إنتماءاتها لجملة مؤسسات تشكل هذا الإنسجام في الهوية؛ فهي عضوة في نادي الجزيرة الرياضي، وخريجة المدرسة الألمانية في القاهرة، وسافرت إلى العديد من الدول الأجنبية سواء في المرحلة الثانوية أو في المرحلة

الجامعية. إن هذه السياقات المتناغمة جعلتها تقول:

كنت عارفة وأنا بادرس في المدرسة الثانوية إني سوف ألتحق بالجامعة الأميركية في القاهرة، كانت مسألة التحاقي بها مسألة مفروغ منها، هخلص من هنا وأروح هناك، وكانت اللغة الإنجليزية بالنسبة لي مسألة عادية غير جديدة،أنا درست بيها في كل حياتي وكمان بتكلم بيها مع كل صحابي

واتساقا مع هذا الوضع فإن اللغة الإنجليزية لم تكن تمثل أرقا بالنسبة لتشكيل الهوية، فالتدريس في كافة مراحل التعليم قبل الجامعي، ومن خلال المدارس الفاخرة التي التحق بها الطلبة كان يتم باللغة الإنجليزية. من هنا فإن التصور العام للغة الإنجليزية بالنسبة لعينة الدراسة لا يرتبط بالشعور بالدونية أو بأية مشاكل أخرى. فهي عنصر دائم في كافة مراحل التعليم السابقة، وغير جديد بالنسبة لهم. ولعل ذلك هو ما جعل بعض الطلبة سواء في المرحلة الجامعية أو مرحلة الدراسات العليا يندهشون من مجرد طرح التساؤلات الخاصة باللغة الإنجليزية عليهم، من خلال اعتيادهم عليها منذ الصغر وحتى الآن. فقد بين أحد الطلبة ذلك من خلال تساؤله:

وما المشكلة في التدريس بهذه اللغة؟ في الجامعات المصرية كمان بيدرسوا باللغة الإنجليزية في بعض الكليات، وكمان احنا بنتكلم عن لغة بنستخدمها في كل مكان في العالم مش في مصر بس وكمان لو حبيت اشتغل اللغة أصبحت مسألة مهمة جدا في الحصول على شغل كويس

ولا تشكل اللغة هنا تشويها في هوية الطلبة بل على العكس فإن الكثيرين منهم يرونها ميزة لهم في سوق العمل، فبالإضافة إلى إحساسهم بأهمية الحصول على درجة جامعية من الجامعة الأميركية في القاهرة التي يرونها تكسبهم مكانة هامة في سوق العمل، فإنهم يرون اللغة الإنجليزية ميزة تمنحهم فرصا أكبر في التعامل والسفر والحصول على امتيازات أكبر ومنح دراسية من الخارج. فالكثير من أفراد العينة سواء في المرحلة الجامعية أو مرحلة الدراسات العليا يرفضون تلك القضايا المرتبطة باللغة الإنجليزية والتي تجعلها أداة من أدوات الغزو الخارجي لمجتمعاتنا وثقافاتنا وهوياتنا. بل إن الأمر وصل بالبعض عن الحديث عن دراسة اللغة الإنجليزية بسبب ضعف اللغة العربية ذاتها؛ فالدراسة تتم باللغة الإنجليزية لأنه لا يوجد بديل أو وسيط لغوي آخر يمكن من خلاله الإطلاع على المنتجات الفكرية والعلمية حول العالم. فبسبب ضعف العربية نحن ندرس باللغة الإنجليزية. ويتلاقي ذلك مع تصور الطلبة لأهمية الجامعة الأميركية كمؤسسة

تعليمية تحتل مكانة متميزة في مصر حيث تقول إحدى الطالبات:

اسم الجامعة لوحده برستيج، مجرد متقول إنك خريج ألـ" إيه يو سي" شوف الناس تعاملك إزاي
كمان شوف أفضل الوظائف والأعمال بيحصل عليها طلبة الجامعة الأميركية، ساعات فيه بعض التخصصات المهمة بتيجي الشركات وتتعاقد مع طلبة الـ"إيه يو سي" قبل حتى منتخرج من الجامعة، دا معناه إن سوق العمل عارف مستوى الجامعة وكمان عارف إنه هيستفيد من طلبتها، طبعا اللغة مسألة مهمة جدا لكن كمان إحنا بنتعلم بشكل ممتاز زي الجامعات الأجنبية

من هنا يمكن القول بأن الالتحاق بالجامعة الأميركية ذاتها مسار طبيعي لطلبتها الذين التحقوا فيما قبل بغيرها من المدارس الأجنبية في مصر، أو مسار طبيعي للقادمين من الخارج ليواصلوا ما جنوه من خلال الالتحاق بالجامعة الأميركية. وإذا استمر تحليلنا لموضوع الهوية على هذا المنوال فإنه يؤكد ارتباطا واضحا وفقا للنظريات السابقة التي أوردناها بين كل من التصورات الذاتية وبين تأثيرات السياقات الاجتماعية المحيطة بها. فالهويات تتشكل وفق مواضعات السياقات الاجتماعية المحيطة بنا على الرغم من أننا أنفسنا من نشكل هذه المواضعات عبر رؤانا الذاتية ومصالحنا الشخصية. وفي ضوء هذا الترابط بين طلبة الجامعة الأميركية والسياقات التي ينشأون من خلالها ويتفاعلون معها يمكن القول بأن الهوية كمفهوم لاتعزل الأفراد اجتماعيا أو رمزيا عن الكيانات المحيطة بهم. فالمفهوم يرتبط بالأساس بالتفاعلات الاجتماعية القادرة على التقييم المستمر والمتواصل لوضعية الفرد/الجماعة، من هنا فإنه ينطوي على حد تعبير Davis 1991 على "قوة متواصلة لا يحوز عليها سوى القليل من المفاهيم" ص 105. وهو المعنى نفسه الذي يؤكده Bhabha 1994 الذي يرى بأن "الهوية ليست تكوينا مسبقا، كما أنها ليست منجزا نهائيا، بقدر ما تشكل عملية إشكالية من الوصول إلى تصور عن الكلية" ص 51.

ورغم تشكل هويات سابقة على الالتحاق بالجامعة بالأميركية فإن هذا لا يعني استمرار لتلك الهويات بدون إعادة تشكل وبنينة جديدة. فالواقع أن ما تم تشكيله من هويات خلال مراحل التعليم السابقة يُعاد صياغته وتشكيله مرة أخرى وفقا لتحولات العمل والرؤى وطبيعة التخصص وشخصية الطالب وآليات التعامل اللغوي الجديدة. هنا يبرز بشكل واضح دور الذات بشكل كبير ومؤثر في طبيعة الهويات الجديدة التي تتشكل. فرغم أننا نتحدث عن هويات تتشكل مجتمعيا أو سياقيا من خلال أطر الجامعة الأميركية إلا أن هناك فروقا نسبية بين ذات وأخرى

تسم عملية التشكل هذه بالمرونة ولا تجعلها جامدة وصارمة وجوهرية. تقول إحدى الطالبات موضحة هذه الفكرة:

بعد التحاقي بالجامعة الأميركية لم أكن أتخيل طفولة الطلبة، فوجئت بمستواهم الضعيف جدا، بصراحة كانت المدرسة أكثر جدية مما عليه حال الجامعة، ولم يخفف عني عناء ذلك سوى السفر في منحة لمدة سنة لليابان حيث وجدت مجتمعا جادا تعلمت منه الكثير، وفيما بعد كان الفضل لإحدى أساتذة الكلية التي أقنعتني بالاستمرار في الدراسة وعدم تضييع فرصة التعلم في الجامعة الأميركية وبصراحة كان لها فضل كبير في تغيير نظرتي للجامعة الأميركية من خلال نصيحتها بأننا نحن من يمكننا أن نغير الأماكن التي نوجد فيها من خلال عملنا الجاد

بالطبع ليس كل الطلبة على هذه الدرجة من الوعي والجدية، فالبعض تحدث عن أجواء الحريات في حرم الجامعة بأريحية شديدة، بدون أن يراها منافية للهوية العربية والإسلامية، بينما رآها البعض الآخر خروجا عن حدود الأدب واللياقة. وربما في هذا السياق يمكن التنبؤ بصراعات مستقبلية داخل الجامعة الأميركية بين تيارات تصر على لبرلة الجامعة مقابل تيارات أخرى تستهدف الطابع المحافظ لها خصوصا في ظل زيادة نسبة المحجبات غير المسبوقة في رحاب هذه الجامعة، ورغم كل ذلك فإن اللغة الإنجليزية سوف تظل وسيلة التواصل التي لن تتغير بتغير التوجهات الأيديولوجية والسياسية للجامعة.

3 -رؤية الآخرين للجامعة الأميركية وطلبتها:

لا تعني اللغة في حد ذاتها المتغير الوحيد المباشر في تشكيل الهوية بالنسبة لطلبة الجامعة الأميركية. فاللغة، وهي الوسيط المباشر للتواصل والتعلم، ترتبط أيضا بالتعرف على العوالم الخارجية الكونية وما يتعلق بها من رموز ثقافية مختلفة مثل الملبس والمأكل والموسيقى والحفلات، وربما أيضا الأشكال الجديدة والوافدة من الإنحرافات. فنحن نتحدث هنا عن اللغة كسياق ثقافي أوسع من مجرد حروف وتركيبات لغوية نتواصل عبرها، فاللغة بنى فكرية وعقلية ومزاجية وشعورية كاملة نشكل من خلالها عوالمنا الذاتية وهوياتنا المشتركة. وهذه العوالم والهويات لا تتشكل فقط من خلال الأفراد وتفاعل الجماعات لكنها تتشكل أيضا من خلال تصورات الاخرين عنا سواء بالاتفاق أو الاختلاف سواء بالمدح أو بالذم. ولعل هذا هو ما يجعلنا نقف في هذا المحور الهام عند تصورات الآخرين عن الجامعة الأميركية، ومن ثم عن طلبتها.

بشكل عام يتسم طلبة الجامعة الأميركية بالحرية في التصرفات على الأقل داخل الحرم الجامعي، فليس هناك من عيب في النقاش داخل المحاضرة، أو الجلوس بطريقة مرنة ومسترخية جدا، أو وضع القدمين على الكراسي الأمامية، أو حتى

الحديث بصوت عالي، ناهيك عن الضحكات الرنانة. وأذكر من خلال ملاحظاتي الشخصية العديدة وقوع الكثير من المشادات العابرة في المكتبة بين أعضاء هيئة التدريس من الجامعات المصرية الزائرين للمكتبة مع هؤلاء الطلبة بسبب عدم تعود الأولين على مثل هذه الحريات التي يرونها مبالغا فيها وخارجة عن حدود الأخلاق والأدب. وللحق فإن هناك بعض المبالغات السلوكية من جانب الكثير من الطلبة خصوصا إذا ما وضعنا في الإعتبار أن هذه التصرفات تتم بين جدران المكتبة المطلوب فيها الصمت واحترام الآخرين. وعموما فقد وجدت طلبة المرحلة الجامعية في الولايات المتحدة أكثر التزاما ورقيا داخل المكتبة بدرجة كبيرة جدا مقارنة بسلوك طلبة الجامعة الأميركية الأقرب لسلوكيات طلبة المدارس في المرحلة الثانوية إن لم يكن في المرحلة الإعدادية. ولعل هذا يرتبط بأن طلبة الجامعة الأميركية هم في النهاية مصريون يرتبطون بالسياق العام لسلوكيات المصريين، وعدم التزامهم بالهدوء، خصوصا أننا لم نتعود منذ الصغر على ارتياد المكتبات وقراءة الكتب. فالهويات الخاصة، مثل هوية طلبة الجامعة الأميركية، لا تنفصل عن الهوية القومية التي تشملها، رغم تميزها في بعض الجوانب المرتبطة بالغنى والثراء.

إضافة إلى ذلك فإن العلاقات بين الجنسين علاقات مرنة إلى حد كبير، فمن السلوكيات العادية داخل الجامعة عند لقاء الجنسين القيام بالتقبيل السريع أو الأحضان الخفيفة على الطريقة الغربية. إضافة إلى ذلك يمكن القول بوجود بعض العلاقات الحميمة التي رأيت الكثير منها بين جدران المكتبة في ميدان التحرير، رغم أن البعض منها كان يتسم بالإبتذال وعدم احترام الآخرين ووضعية المكتبة.

وعلينا هنا ألا نفصل بين داخل الجامعة وخارجها أيام كانت الجامعة في ميدان التحرير من ناحية خروج الطلبة ذكورا وإناثا وتعاملهم/تعاملهن مع المحلات المجاورة للجامعة سواء أكانت مكتبات أو محلات لتصوير الكتب أو مطاعم أو غيرها مما يحتاجه الطلبة في حياتهم اليومية. وفي الغالب الأعم يتصرف هؤلاء الطلبة أمام ذلك العالم المحافظ في ميدان التحرير بحرياتهم التلقائية المعهودة بدون وضع السياق الاجتماعي الخارجي في الاعتبار. ولعل ذلك هو ما يجعل الآخرون يرسمون تصورا فاضحا في أغلبه عن طلبة الجامعة الأميركية وما يجري خلف جدران هذه الجامعة. ولعل الاقتباس التالي الذي أورده أحد القراء المعلقين على خبر تعري طالبة الجامعة الأميركية علياء ماجدة المهدي يمنحنا صورة مكثفة جدا عن تصورات الخارج عن الجامعة الأميركية وطلبتها. يقول المعلق/المعلقة المجهول على هذا الخبر:

الله يلعنك انت و امثالك صدقت التي قالت لك اخس علي اللي ربوكي يبدو انك عديمة التربية اصلا و ابوكي ايضا عديم التربية و امك داعرة ياملحدة ياقذرة الله يلعن ام الجامعة الامريكية وكر الجواسيس القابع في مصر و مصدر الفساد و

انحطاط القيم لان كل من يتخرج منها ممسوخ عديم الهوية لايعرف ان كان مصريا ام امريكيا مسلما ام ملحدا ان شاء الله اخرتك سوداء و اتمني ان تموتي محروقة او تحرقي و تعيشي بجسد مشوه قمتي بتعريته من قبل.

رد أحد القراء على الخبر الوارد في بوابة الأهرام يوم 2011/11/15 حول موضوع ***"علياء المهدى صاحبة الصورة العارية: لا أنتمى لـ"6 إبريل".. وأصدقاؤها يحيّونها على تصرفها".***

ومن المعروف أن علياء المهدي طالبة عشرينية العمر في قسم الإعلام بالجامعة الأميركية في القاهرة، وهي أول أنثى في العالم العربي وربما الإسلامي تقوم بعرض جسدها عاريا على الإنترنت، في سابقة هى الأولى من نوعها في تاريخ هذه المنطقة. ولقد أدى ذلك لحملة غير عادية ضدها وصلت إلى حد التهديد بالقتل والرجم. لكن ما يهمنا هنا وفي ضوء الاقتباس السابق هو الربط المباشر بين تصرف علياء وبين انتمائها للجامعة الأميركية. فوفقا لهذا الاقتباس هناك تصورات أو تنميطات مخيفة لهوية المنتمين للجامعة الأميركية؛ فأولا الجامعة وكر للجواسيس، وثانيا مصدرا للفساد وانحطاط القيم، وثالثا فإن كل من يتخرج منها يصبح ممسوخا بلا هوية معروفة. لقد انطلقت في تناولي لموضوع رؤية الآخرين لهوية الجامعة الأميركية من هذا الاقتباس الحاد والمتطرف جدا لأنه يؤكد ما قاله العديد من الطلبة لي حول ما يرونه صورة مرسومة لهم من قبل المجتمع المصري، وهي صورة على قدر كبير من التشويه والتنميط والأكاذيب.

حكت لي العديد من الطالبات على وجه الخصوص من خلال مقابلاتي معهم، أن الكثير من سائقي التاكسيات كانوا يسألوهن عن حمام السباحة القابع داخل الجامعة في التحرير، وحينما كانت الطالبات يخبرهن بعدم وجود هذه الحمام لم يكونوا يصدقونهن معللين ذلك بالأسباب التي تجعل الجامعة تقيم الأسوار العالية حولها منعا لتلصص الغرباء. ولا يقف الأمر عند ذلك فقد قال لي أحد الطلبة بأن أحد سائقي التاكسيات رفض أن يصدق أن من تجلس بجواره هي أخته وليست "البنت بتاعته".

إن أهمية هذه الصورة العامة أنها ترسم هوية مركبة تشتمل على تصور الذات من ناحية في ضوء السياقات الاجتماعية المحيطة بها، كما أنها تضع في حسبانها في الوقت نفسه تصورات الآخرين عن أنفسنا وعن الهويات الخاصة بنا. فالهويات التي نشيدها في النهاية حاصل تصوراتنا عن أنفسنا وعلاقاتنا بالآخرين ممن يتشابهون معنا، كما أنها حاصل تعديل تصوراتنا من خلال ما يراه الآخرون عنا سواء بالسلب أو بالإيجاب.

ولا تسير كل التصورات الخاصة بالجامعة الأميركية على هذا المنوال المرتبط بتصورات ومعايير أخلاقية، فقد ذكر العديد من الطلبة أن هناك الكثيرين

الذي يقدرون الجامعة الأميركية ويتمنون الدراسة فيها، وبشكل خاص يتمنون التحدث بهذا القدر من طلاقة اللغة الإنجليزية مثل طلبتها. فقد بين العديد من الطلبة أن بعض أقاربهم الذين درسوا في الجامعات الحكومية قد ندموا على أنهم لم يلتحقوا بالجامعة الأميركية من أجل الحصول على درجاتهم العلمية، لما شعروا به فيما بعد من أهمية ذلك بالنسبة للحصيلة العلمية من ناحية وسهولة الحصول على عمل من ناحية أخرى.

وعموما فإن تصورات الآخرين تجاه الجامعة الأميركية قد خفت في السنوات الأخيرة بدرجة كبيرة في ضوء التوسع الكبير الذي شهدته مصر في الجامعات الأجنبية الخاصة مثل الجامعة الألمانية والكندية والبريطانية والروسية. ولا يقف الأمر فقط عند التوسع في الجامعات الأجنبية لكنه يتعدى ذلك إلى التوسع في المدارس الخاصة الدولية التي تلبي حاجات شريحة غير قليلة من الأثرياء في مصر أو الأجانب المقيمين فيها. ويأتي هذا التصاعد في المؤسسات التعليمية الأجنبية في ظل تراجع حاد في التعليم الحكومي الجامعي وما قبل الجامعي، وهو أمر يجعل أي تناول نقدي للمؤسسات التعليمية الأجنبية خارج عن السياق. لقد أصبحت المؤسسات التعليمية الخاصة سواء أكانت جامعية أو ما قبلها حلم خاص للمصريين الباحثين عن فرص تعليمية جيدة لأولادهم، وهربا من مؤسسات الدولة التعليمية البالية، وهو أمر أدى لقبول واسع المدى للمؤسسات التعليمة الخاصة، وتراجع حدة نقدها بما في ذلك الحديث عن الغزو الثقافي والتعليمي الذي اعتاد المثقفون المصريون تناوله في الربع الأخير من القرن الماضي.

4 -الهوية والموقف من القضايا المجتمعية:

هناك العديد من القضايا المجتمعية الهامة التي تم عرضها على حالات الدراسة سواء من طلبة المرحلة الجامعية أو طلبة الدراسات العليا، ويأتي على رأس هذه القضايا الموقف من ثورة 25 يناير والتبعات الناجمة عنها، إضافة إلى عضوية الجمعيات والمؤسسات المدنية وغيرها من الأحزاب السياسية، والموقف من القضية الفلسطينية، وقضايا التنمية والإصلاح السياسي في مصر، والعلاقات المصرية العربية، والعربية العربية، والموقف من الولايات المتحدة الأميركية، وأخيرا مسألة الوحدة الوطنية والعلاقات بين المسلمين والأقباط في مصر.

حاز الموقف من ثورة الخامس والعشرين من يناير إجماعا واسعا من كل أفراد العينة حيث أكدوا على أهميتها في تغيير مصر، كما كشفوا عن سعادتهم بها. ولقد أكد العديد من الطلبة على مشاركتهم في الثورة ذكورا وإناثا، كاشفين عن مشاعر الانتماء لمصر والتحولات التي تحدث فيها. وربما لزم التنويه هنا إلى دور اللغة الإنجليزية في متابعة الصحافة الأجنبية فيما يختص بمجريات الثورة وأحداثها. والواقع أن مسألة اللغة تعمق من مستوى الوعي بالقضايا المصرية،

وخصوصا أحداث الثورة، في ظل تدني المستوى الصحفي المصري الذي يشتمل على جرعات أيديولوجية عالية قد لا تتناول الواقع بشكل حقيقي وموضوعي. ولعل هذا الإطلاع هو ما يدفع تجاه نقد المجتمع المصري كما ذكرنا آنفا من قبل هؤلاء الطلبة، والتأكيد على أن الثورة لم تبدأ بعد بشكل جذري في ظل تخلف المجتمع المصري وارتفاع نسب البطالة والأمية بين المصريين.

ورغم ذلك فقد كشف بعض الطلبة من خلال المقابلات التي تمت معهم عن رغبة حقيقية في التغيير تتناغم مع شعارات ثورة الخامس والعشرين من يناير. يقول أحد الطلبة:

> ما تنساش إن إحنا الطلبة في الجامعة الأميركية اشتركنا في المظاهرات زينا زي شباب الثورة، والأهم من ده إن إحنا عملنا مظاهرات جوه الجامعة هنا، وخلينا الإدارة توافق على بعض مطالبنا، ومطالب العاملين في الجامعة، إحنا برضوا مصريين، بس بنتكلم إنجليزي!! (ضحك) وكمان متنساش إنوا كان من ضمن مطالبنا تخفيض التويشن (المصروفات) بتاعت الجامعة

ورغم عدم وجود أي انتماء لأي من الأحزاب السياسية في مصر، وهي مسألة أكد عليها كافة أفراد العينة، فإن اللافت للنظر ارتفاع نسبة التعامل مع منظمات المجتمع المدني، وبشكل خاص تلك المنظمات ذات الأبعاد الكونية مثل: Plan و CISV International وغيرهما من المؤسسات الأخرى المحلية الخاصة بالتنمية المستدامة والعمل مع القطاعات الفقيرة في المجتمع المصري. ولعل ارتفاع نسبة التعامل مع هذه المنظمات والمؤسسات يرجع بالأساس إلى طبيعة التخصصات التي يدرسها الطلبة والتي تتضمن تدريبا ميدانيا مثل أقسام علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا. إن التعامل مع هذه المؤسسات يستدعي فهما جيدا للأوضاع الاجتماعية في مصر ولغة حوارية بسيطة تسهل التواصل مع هذه الشرائح الاجتماعية الفقيرة وهو أمر يُكسب طلبة الجامعة الأميركية في مرحلة التدريب العملي قدرا أكبر من التواصل المجتمعي بعيدا عن حمولات اللغة الإنجليزية وممارساتها الضيقة بالنظر لدائرة التعامل والتواصل.

واللافت للنظر هنا أن بعض أفراد العينة يواصلون عملهم مع هذه المؤسسات، وبشكل خاص الدولية منها، التي تعمل في مجالات التنمية المجتمعية، ولكن في وظائف إدارية عليا تهدف لتدريب الكوادر الميدانية، وهو أمر يؤكد أيضا على أهمية الخروج من نطاق اللغة الإنجليزية إلى العربية من أجل التواصل مع المتدربين. وفي هذا الإطار يبدو أن عالم ما بعد التخرج يستدعي استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في الوقت نفسه، فأولا يتم استخدام العربية في سياق التواصل

المجتمعي مع الشرائح المجتمعية المصرية البسيطة والفقيرة، وثانيا يتم استخدام اللغة الإنجليزية في إطار التواصل مع المسئولين الأجانب عن هذه المؤسسات ومنظمات المجتمع المدني المختلفة، وهو أمر يكشف عن دور الوسيط الذي يلعبه خريجوا الجامعة الأميركية، مستفيدين في ذلك من مستوياتهم اللغوية العالية، بين الداخل المصري والخارج الأجنبي.

ولم يختلف موقف أفراد العينة تجاه الصراع العربي الإسرائيلي عن موقف المصريين بعامة، فقد أكد الكثير من الطلبة رفضهم لحصار غزة، والمواقف العدوانية الإسرائيلية. وهو موقف يختلف بدرجة كبيرة عن الموقف من الولايات المتحدة الأميركية الذي جاء بعيدا عن التوجهات الأيديولوجية للعرب بعامة والمصريين بخاصة. فقد رأى الكثير من الطلبة بأن الموقف العدواني من الولايات المتحدة يرتبط بالأساس بدعمها لإسرائيل مؤكدين على ضرورة التفريق بين سياسات الولايات المتحدة وبين الشعب الأميركي. ويعود ذلك إلى أن الكثير من أفراد العينة ذكورا وإناثا، في المرحلة الجامعية أو ما بعدها، قد سافروا إلى الولايات المتحدة فيما قبل، وعلى دراية بطبيعة الشعب الأميركي الأمر الذي يخفف لديهم من حدة العداء الأيديولوجي الذي يضمره الكثير من المصريين للولايات المتحدة.

كما ساهمت اللغة الإنجليزية ذاتها والإنتماء إلى الجامعة الأميركية والتعامل مع الأساتذة الأميركيين في التخفيف أيضا من حدة العداء للولايات المتحدة، وهي مسألة طبيعية تكشف عن الكيفية التي تتشكل بها هوياتنا من خلال تعاملاتنا وتفاعلاتنا مع السياقات المختلفة. وعلينا أن نضع في الاعتبار هنا أن مسألة الدراسة في الجامعة الأميركية واستخدام اللغة الإنجليزية ليست هي المحدد الوحيد لتخفيف العداء الأيديولوجي تجاه الولايات المتحدة، لكن الأوضاع الاجتماعية للطلبة والمسارات السابقة لهم هي من يدعم هذا التوجه الأيديولوجي تجاه أميركا؛ فكما ذكرت سابقا فإن العديد من المبعوثين المصريين إلى الولايات المتحدة لم يخففوا حدة العداء لها حتى وهم بين ظهرانيها ويدرسون في جامعاتها ويتحدثون لغة أهلها، وربما يسعون للحصول على جنسيتها. إن البنية العقلية لهؤلاء المبعوثين تأسست في سياق الهويات الجامدة القبلية المتمترسة بالعداء للولايات المتحدة المتأسس على اللغة العربية والإسلام والكراهية للآخر الغربي المسيحي، وهو ما يفسر عدم تغير هذه الهويات حتى بعد السفر للولايات المتحدة والمواجهة المباشرة معها.

وأخيرا فقد كشف كافة أفراد العينة عن وعي كبير بمسألة الوحدة الوطنية، وأكدوا أن من أبرز الجوانب الإيجابية في الجامعة الأميركية ذلك المناخ الليبرالي الذي يستند إلى قيم المساواة والتسامح وعدم التمييز وفقا للدين والنوع والعرق. وربما تجدر الإشارة لأهمية اللغة الإنجليزية في هذا السياق التي تسمح للطلبة

بالتعرف على التراث النظري الأميركي الذي يتعلق بدراسات النوع والعرق والتفاوتات الاجتماعية المختلفة، وهي دراسات قليلة جدا في الجامعات المصرية، ويتم تدريسها بشكل خاطئ وعبر كتب مدرسية ضعيفة جدا. ويتجاوز استخدام اللغة الإنجليزية هنا حدود الوجاهة الاجتماعية والتمايز عن الآخرين إلى الإستفادة الأكاديمية المباشرة والاطلاع على التراث الأكاديمي الغربي بشكل جيد ومتعمق. ولعل دراسة هذه الموضوعات هو ما جعل الطلبة أيضا لا يجدون أية تناقضات بين الدراسة في الجامعة الأميركية والتحدث باللغة الإنجليزية وبين انتماءاتهم المصرية والعربية والإسلامية وهى الدوائر الثلاث التي اختاروها تعبيرا عما يشكل الهويات الخاصة بهم بشكل كبير.

والواقع فإن طلبة الجامعة الأميركية سواء أكانوا في المرحلة الجامعية أو مرحلة الدراسات العليا اتسموا بالطابع العملي جدا؛ فلم يهمهم تصورات الاخرين لهم، وأكدوا على استفادتهم الكبيرة جدا من الدراسة في الجامعة الأميركية، واشادوا باللغة الإنجليزية والفرص الهائلة التي وفرتها لهم سواء أثناء الدراسة أو فيما بعد في حياتهم العملية. وعلى حد قول أحد الطلاب:

مين يقدر ينكر أهمية اللغة الإنجليزية في العالم الآن، هيه اللغة الأولى، ممكن تتكلم بيها في أي مكان، وبعدين ما أنا بتكلم عربي، بس أنا عندي ميزة لازم أستفيد منها، التعليم في الجامعة الأميركية والكلام بالإنجليزية، وبعدين أنا مش هقعد أفكر وأسأل نفسي يا ترى اللغة الإنجليزية تتعارض مع العربية ولا مع الإسلام، بصراحة very silly

إن هذا التوجه المباشر للتعامل مع العالم دون الدخول في تعقيداته الأيديولوجية ومشكلاته السياسية هو أحد سمات تركيبة بنية الهوية لدى طلبة الجامعة الأميركية سواء في مرحلة الدراسة الجامعية أو ما بعدها. وكأن لسان حال الطلبة يقـول: "العالم هكذا يتم التعامل معه مباشرة، نحن ندرس في الجامعة الأميركية، وندرس باللغة الإنجليزية، نحن أثرياء، ولنا وضعية اجتماعية متميزة، فعلينا أن نستثمر هذه الوضعية، وأن نترك "وجع الرأس" الأيديولوجي وراء ظهورنا". إن هذا لا يعني عدم الاهتمام بالواقع المعيش لكنه يعني أننا نعمل ما علينا ونستفيد مـن واقعنـا، ونحقق مصالحنا وأهدافنا. ولعل ذلك هو ما يجعلنا نتناول في النقطة الأخيرة من البحث هوية طلبة الجامعة الأميركية، وعلاقتها بمنظومة اللغة الإنجليزية.

5 -هل ثمة هوية لطلبة الجامعة الأميركيـة أم لا، وعلاقـة ذلـك باللغـة الإنجليزية؟

ربما يبدو طرح السؤال السابق بعد كل ما تناولناه سابقا ساذجا بدرجة كبيرة؛ فبالطبع ثمة هوية لدى طلبة الجامعة الأميركية، ومن ينكر أساسا وجود الهوية لأي فصيل مجتمعي إنساني يتفاعل مع غيره من الجماعات الإنسانية الأخرى. وإذا اتفقنا بادئ ذي بدء على وجود هوية لهذه النوعية من الطلبة في الجامعة الأميركية فما هي العناصر المشكلة لها؟ وما الدور الذي تلعبه اللغة في نسيج هذه الهوية؟ وكيف تتشكل هذه الهوية؟

الواقع إن النقاشات السابقة تقودنا إلى الاستخلاصات التالية:

- إن موضوع الهوية من الموضوعات الشائكة والمتغيرة بدرجة كبيرة في ظل التحولات الهائلة التي تشهدها المجتمعات الإنسانية، وهي تحولات تشمل الاقتصاد والسياسة والتكنولوجيا وغيرها من مناحي الحياة الأخرى. كما أن دراسة الهويات من الموضوعات الشائكة من ناحية اشتمالها على كل من الجانبين الذاتي والجمعي في تشكلها، ويكاد لا يوجد موضوع أو مفهوم من المفاهيم الاجتماعية تحضر فيه الذات بقوة وتأثير بالغين مثل الهوية. من هنا فإنها تشتمل على قدرات للذات الفاعلة الموجهة كما تشتمل أيضا على قدرات للجماعة المجاوزة للذات والضامة لتأثيراتها المختلفة.
- إضافة إلى ذلك فإن الهوية ليست كيان متشكل نهائي لكنها تحضر بقوة في حضانة الممارسة اليومية التي تكسبها إشكالات جديدة وتنوعات عديدة؛ فالهوية تكتسب أهميتها من تجددها الدائم، ومن قدرة الذوات الفردية على ممارسة إبداعاتهم من أجل تطويرها أو حتى في أسوأ الأحوال الحفاظ عليها. وربما لا يوجد مفهوم يرتبط بحقل الممارسة اليومية مثل الهوية لإرتباطها المباشر بمصالح الناس وبحثهم الدائم عن حيويتهم ووجودهم المتعين المؤثر.
- في ضوء ما سبق توصلت الدراسة إلى وجود حالة من الإنسجام بين استجابات طلبة الجامعة الأميركية بشكل عام، سواء أكانوا في مرحلة الدراسة الجامعية أو مرحلة الدراسات العليا. وهى حالة يوجدها ذلك الانتماء الطبقي المتشابه بين المنتمين للجامعة الأميركية، الأمر الذي يخلق توجهات وأفكار ورؤى واحدة للعالم. وتمثل اللغة هنا أداة الربط التي تجمع كل العناصر الفردية المتناثرة والمتشظية في منظومة واحدة هي تشكيلة طلبة الجامعة ككل. إن اللغة تمثل أداة الإتصال الرئيسة فيما بين الطلبة لكنها تمثل عنصرا ضمن عناصر أخرى تتداخل ضمن بنية الانتماء الاجتماعي الطبقي الواحد. ورغم أن اللغة تمثل سياقا من الاختلاف بين طلبة الجامعة الأميركية والسياقات المحيطة بهم، فهم مضطرون بحكم العمل والتعامل والتفاعلات الاجتماعية المختلفة على التواصل بالعربية مع

الشرائح الاجتماعية الأخرى من المصريين وبشكل خاصة الدنيا أو المتوسطة منها. فهم في النهاية محكومون بسياقات اجتماعية أكبر وأشمل وأكثر تنوعا.

- لا يعني ذلك عدم وجود اختلافات بين طلبة الجامعة الأميركية، العكس هو الصحيح حيث توجد اختلافات عديدة تتعلق بشكل رئيس بالعمر ونوع الدراسة والمسئولية الاجتماعية للطلبة. فطلبة الدراسات العليا يختلفون بدرجة أو بأخرى عن طلبة المرحلة الجامعية على الأقل في مسئوليات العمل، ومواجهة المجتمع، والتعامل المباشر مع شرائح جديدة من المجتمع المصري وجها لوجه. كما توجد بعض الاختلافات المتعلقة بطبيعة المرحلة العمرية فقد بينت بعض الحالات جدية المرحلة ما بعد الجامعية من حيث البدء في العمل ومواجهة أعباء الحياة ومتطلباتها المختلفة.
- وهناك هوية مشتركة أيضا تنسجم مع ما سبق وتتوافق مع من ناحية توفر مناخ دراسي راقي المستوى يتسم بالحرية والنقاش والتحفيز على إنتاج الأفكار والإبداع. هذا المناخ يتم بالتعارض مع السياقات الاجتماعية والتعليمية المحيطة التي تتسم بالتخلف والتقليدية في التعليم، وهي مسائل يعيها طلبة الجامعة الأميركية بدرجة كبيرة وتشكل أيضا أجزاء كبيرة من هوياتهم. فالهوية تتشكل هنا من خلال الوعي بالذات والمكانة الاجتماعية والتعليمية ومن خلال التجانس الجمعي بين الطلبة وإنتماءاتهم لجماعات ومؤسسات بعينها، وأيضا من خلال التعارضات المختلفة مع السياقات الأخرى المحيطة المتعارضة مع جوهر الجامعة الأميركية وفلسفتها التعليمية.
- يتعلق فهم الطلبة للهوية هنا بوصفها الرابط الذي يجمعهم مع بعضهم البعض كطلبة يدرسون في الجامعة الأميركية ويتمايزون عن غيرهم مما يدرسون في الجامعات الحكومية المصرية الأخرى، أو حتى الجامعات الخاصة الأخرى الأقل مكانة من الجامعة الأميركية، وهنا تظهر مجموعة من المفاهيم التي تتداخل مع مفهوم الهوية مثل مفهوم الشلة، والأصدقاء. إن التصورات ورؤى العالم الواحدة والعلاقات ومستويات الدخل المتشابهة إضافة إلى انماط الحياة والسفر والتعليم واللغة كلها جوانب تجمع بين الطلبة في عوالم مشتركة واحدة تخلق فيما بينهم إحساسا عاما بالتشابه والجمعية، وتوقعات مشتركة. وهي مسألة يؤكدها Fuglsang من خلال رؤيته للهوية بوصفها عبارة عن توقعات الأفراد فيما بينهم في الوضع الاجتماعي الذي يعيشون فيه ويمارسون أدوراهم المختلفة من خلاله (أنظر ص 474).

- ورغم تلك العلاقات والأحاسيس المشتركة التي تخلق هوية عامة بين الطلبة فإن هذه النوعية من الهويات تظل رهنا بفترات الدراسة بحيث تستمر أثناءها وتختفي فيما بعد. فهي هويات مؤقتة، وربما عابرة في إطار الحياة الدراسية، لكنها هنا مؤطرة بنوعية الدراسة واللغة وتشابه السياقات الاجتماعية والطبقية. ويمكن في هذا السياق الإشارة إلى ما ذكرته إحدى الطالبات حول كون العلاقات التي استمرت معها تواصلت من المرحلة الثانوية مرورا بالجامعة وما بعدها من خلال مجموعة ضيقة من الأصدقاء والصديقات. إن مجتمع الطلبة رغم أنه ينتج الهويات الخاصة به فإنه رهن بالفترة الزمنية المرتبطة بالتعليم ورهن بإنتقالاتنا وحصولنا على أعمال جديدة تفرق فيما بيننا.
- ويستدعي ذلك التعرف على قوة الهويات وتفاوتاتها المختلفة؛ فهناك هويات قوية راسخة يصعب أن تنتهي بإنقضاء الوقت مثل الهويات العرقية والإثنية وربما اللغوية، ويعود ذلك لإرتباطها بمصالح البشر والعوالم التي يعيشون فيها، بينما هناك أيضا هويات عابرة ترتبط بفترات زمنية محددة مثل مجتمع الطلبة، ومجتمعات المهاجرين المؤقتين، والموضات الفكرية السريعة. إن هذا يؤسس لأهمية عدم استخدام كلمة هوية بإطلاق ووقفها على استخدامات صارمة تجعلنا نصف كل تجمع بشري بكونه هوية، وإلا تحولت الحياة ذاتها لحالة صراعية يبحث فيها كل طرف عما يميزه في مواجهة الآخرين.
- ولعل ذلك يجعلنا نرى أن هوية طلبة الجامعة الأميركية المحاطة بسياقات اجتماعية وأنماط سلوكية معينة واستخدام مكثف للغة الإنجليزية تتسم بمرونة عالية غير جامدة محكومة بظروف تخلف المجتمع المصري والتفاوتات الحادثة بين شرائحه الاجتماعية المختلفة. وهو أمر كشف عن عدة أمور أولها أن الإستخدام اللغوي والتدريس بغير العربية لم يؤدي إلى حالة إضعاف لطلبة الجامعة الأميركية ولم يؤدي إلى تشكل هويات جامدة وصارمة لهم في مواجهة السياقات الاجتماعية المتخلفة المحيطة بهم قدر ما أسهم في تنامي قدراتهم المعرفية وفتح أبواب للعمل واسعة أمامهم مقارنة بقرنائهم من خريجي الجامعات المصرية، كما أنه ساعد أيضا على التواصل بين الخارج الأجنبي من ناحية والسياق الاجتماعي المحلي من ناحية أخرى.
- ولم يقف تعلم اللغة الإنجليزية والتدريس بها حائلا أمام الوعي بالقضايا الاجتماعية المصيرية التي تواجهها مصر والشعوب العربية، لكنه كان وعيا هادئا مرتبطا بالوضعية الاجتماعية الثرية، وهي وضعية تخلق

تصورات وتقييمات للقضايا الاجتماعية مختلفة بالتأكيد عن غيرها من رؤى وتصورات الآخرين الذي ينتمون لأوضاع اجتماعية مختلفة. وهي مسألة تجعلنا نرى بأن الهوية وإن كانت تتحدد ببعض الجوانب الهامة مثل اللغة والدين والإثنيات والأعراق فإنها تتحدد أيضا بالوضعية الاجتماعية والإنتماءات الطبقية التي تُكسب البعض امتيازات مادية ومعنوية في مواجهة جماعات أخرى لا تستفيد مجتمعيا ولا تتحقق ماديا. وربما كان التصنيفان الشهيران "أغنياء وفقراء" تعبيرا في التحليل النهائي عن أقدم الهويات البشرية في التاريخ.

سادسا: مراجع البحث

- Ahmed, Khawlah, (Sep. 2010), The Arabic Language:

Challenges in the Modern World, *International Journal for Cross-Disciplinary Subjects in Education (IJCDSE)*, Volume 1, Issue 3, pp.196-200.

- Alder, Patricia A. and Peter Alder, 1989, The Glorified Self, The Aggrandizement and the Constriction of Self, *Social Psychology Quarterly*, Vol. 52, No.4, pp. 299-310.
- Al-Haj, M.1995. Education, empowerment and control: The case of the Arabs in Israel. New York: State University of New York Press.
- Balfour, Lawrie, (Dec.) 2005, Reparations after Identity Politics, *Political Theory*, Vol. 33, No. 6, pp. 786-811.
- Bhabha H, 1994, The Location of Culture, London, UK: Routledge.
- Brubaker, Rogers and Frederick Cooper, Feb. 2000, Beyond "Identity", *Theory and Society*, Vol.29, No.1, pp. 1-47.
- Bosma, H. A., Graafsma, T L. G., Grotevant, H. D., & DeLevita, D. J. 1994, Identity and Development: An interdisciplinary Approach, Thousand Oaks, CA: Sage.
- Callero, Peter L., 2003, The Sociology of the Self, *Annual Review of Sociology*, Vol. 29, pp. 115-133.
- Cerulo, Karen A., 1997, Identity Construction: New Issues, New Directions, Annual Review of Sociology, Vol. 23, pp. 385-409.
- Cooley, Charles H., 1902, Human Nature and Social Order, New York: Scribners.
- Davis F., 1991, Identity Ambivalence in Clothing: the Dialectic of the Erotic and the Chaste. In Social Organization and Social Processes: Essays in Honor of Anselm Strauss, ed. D Maines, pp. 105-16. New York: Aldine de Gruyter.
- Deaux K, 1993, Reconstructing Social Identity, *Pers. Soc. Psychol. Bull,* 19:4-12.
- Burke, Peter J., (March) 2006, Identity Change, *Social Psychology Quarterly*, Vol. 69, No. 1, pp. 81-96.
- Erikson, E. H., 1959, Identity and the Life Cycle, New York:

Norton.
- Erikson, E.1968. Identity, youth and crisis. New York: Norton & Company.
- Erikson, E.1997 . Dimensions of a New Identity: The Jefferson Lectures in the Humanities.W. W. Norton & Company Inc.
- Freire, P. 1993. Pedagogy of the oppressed. New York: Continuum.
- Fuglsang, Lars, (Autumn) 2005, IT and Senior Citizens: Using the Internet for Empowering Active Citizenship, Science, Technology, & Human Values, Vol. 30, No. 4, pp. 468-495.
- Giroux, H. 1983. Theories of reproduction and resistance in the new sociology of education: A critical analysis. Harvard Educational Review, 53(3), 257-293.
-Giroux, H. 1997. Pedagogy and the politics of hope: Theory, culture, and schooling. Boulder, CO: Westview Press.
- Glaser, B. & Strauss, A. 1967. The discovery of grounded theory: Strategies for qualitative research. New York: Aldine De Gruyter.
- Grotevant, Harold D., Nora Dunbar, Julie K. Kohler and Amy M. Lash Esau, Oct. 2000. Adoptive Identity: How Contexts within and beyond the Family Shape Developmental Pathways; *Family Relations*, Vol. 49, No. 4, pp. 379-387.
- Gurr, T. 1970. Why men rebel. New Jersey: Prinston University Press.
- Helmreich, R. & Stapp, J. 1974. Short forms of the Texas Social Behavior Inventory (TSBI), an objective measure of self-esteem. Bulletin of the Psychonomic Society, 4(5A), 473-475.
- Hogg, Michael A. and Dominic Abrams, 1988, Social Identifications: A Social Psychology of Intergroup Relations and Group Processes. London: Routledge.
- Howard, Judith A., 2000. Social Psychology of Identities, *Annual Review of Sociology*, Vol. 26, pp. 367-393.
- Langman, Lauren, (March) 2005, From Virtual Public Spheres

to Global Justice: A Critical Theory of Internetworked Social Movements, Sociological Theory, Vol.23, No.1, pp. 42-74.
- Levenson, H. 1981. Differentiating among internality, powerful others, and chance. In H. Lefcourt (Ed.), Research with the locus of control construct, (Vol. 1), Assessment Methods (pp. 15-63). New York: - Academic Press.
- Luhtanen, R. & Crocker, J. 1991. Self-esteem and intergroup comparison: Toward a theory of collective self-esteem. In J. Suls & T. Wills (Eds.), Social comparison: Contemporary theory and research. New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates, Publishers.
- Luhtanen, R. & Crocker, J. 1992. A Collective Self-esteem Scale: Self-evaluation of one's social identity. Personality and Social Psychology Bulletin, 18(13), 302-318.
- Mari, S. 1987. Policy and counter policy: The state of Arab education in Israel. Relations between ethnic majority and minority: A symposium. Tel-Aviv, Israel: International Center for Peace in the Middle East.
- Mead, George Herbert, 1934, Mind, Self and Society, Chicago: university of Chicago Press.
- Newman, David M., 2000, Third Edition, Exploring The Architecture of Everyday Life, California: Pine Forge Press.
- Nakhleh, K. 1979. Palestinian dilemma: Nationalist consciousness and university education in Israel. Detroit: Association of Arab-American University Graduates.
- Olson, J. & Hafer, C. 1996. Affect, motivation, and cognition in relative deprivation research. In R. Sorrentino & T. Higgins (Eds.), Handbook of motivation and cognition: V. 3 – The interpersonal context (pp. 85-117). New York: The Guilford Press.
- Petta, G. & Walker, I. 1992. Relative deprivation and ethnic identity. British Journal of Social Psychology, 31, 285-293.
- Phinney, J. 1989. Stages of ethnic identity development in minority group adolescents. Journal of Early Adolescence,

9(1-2), 34-49.
- Phinney, J. 1992. The Multiple Ethnic Identity Measure: A new scale for use with diverse groups. Journal of Adolescent Research, 7(2), 156-176.
- Phinney, J. 1995. Ethnic identity and self-esteem: A review and integration. In A. Padilla (Ed.), Hispanic psychology: Critical issues in theory and research (pp. 57-70). California: Sage Publications.
- Phinney, J. & Chavira, V. 1992. Ethnic identity and self-esteem: An exploratory longitudinal study. Journal of Adolescence, 15, 271-281.
Rosenberg, M. 1965. Society and the adolescent self-image. Princeton, New Jersey: Princeton University Press.
- Rieber, Steven, (Sep.) 1998, The Concept of Personal Identity, *Philosophy and Phenomenological Research*, Vol. 58, No. 3, pp. 581-594.
-Rotter, J. 1966. Generalized expectancies for internal versus external control of reinforcement. Psychological Monographs, 80(609).
- Rousseau, David and Van der Veen, A. Maurits, (Oct.) 2005, The Emergence of a Shared Identity: An Agent-Based Computer Simulation of Idea Diffusion, *The Journal of Conflict Resolution*, Vol. 49, No. 5 (Oct., 2005), pp. 686-712.
- Runciman, W. G. 1966. Relative deprivation and social justice: A study of attitudes to social inequality in twentieth-century England. Los Angeles: University of California Press.
- Rusciano, Frank Louis, (Sept.) 2003, The Construction of National Identity: A 23-Nation Study, *Political Research Quarterly*, Vol.56, No.3, pp. 361-366.
- Smith, Anthony D., 1991, National Identity, Reno: University of Nevada.
- Smith, E., Ferree, M., & Miller, F. 1975. A short scale of attitudes towards feminism. Representative Research in Social Psychology, 6, 51-56.

- Stets, Jan E. and Peter J. Burke, (Sep.) 2000, Identity Theory and Social Identity, *Social Psychology Quarterly*, Vol. 63, No. 3, pp. 224-237.
- Stryker, Sheldon and Burke, Peter J., (Dec., 2000), The Past, Present, and Future of an Identity Theory, *Social Psychology Quarterly*, Vol. 63, No. 4, Special Millenium Issue on the State of Sociological Social Psychology, pp. 284-297
- Suleiman, Yasir, 2003, The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology, UK: Edinburgh University Press.
- Tajfel, H. (1977). Social psychology and social reality. New Society, 39, 65-66.
- Tajfel, H. & Turner, J. C. 1979. An Integrative Theory of Intergroup Conflict. In W. G. Austin & S. Worchel (Eds.), The Social Psychology of Intergroup Relations. Monterey, CA: Brooks-Cole .
- Tajfel, H. 1981. Human groups and social categories: Studies in social psychology. Cambridge: Cabridge University Press.
- Tajfel, H. 1982. Social psychology of intergroup relations. Annual Review of Psychology, 33, 1-39.
- Tajfel, H. & Turner, J. 1986. The social identity theory of intergroup behavior. In S. Worchel & W. Austin (Eds.), Psychology of intergroup relations (2nd ed.) (pp. 7-24). Chicago: Nelson-Hall.
- Tajfel, H. & Turner, J. C. 1986. The social identity theory of inter-group behavior. In S. Worchel & L. W. Austin (Eds.), Psychology of Intergroup Relations. Chigago: Nelson-Hall

- الحمد، تركي؛ وآخرون. 2006. الهوية العربية في عصر العولمة : بحوث و مناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها وحدة الدراسات بدار الخليج. الشارقة: دار الخليج.
- خضر، لطيفة إبراهيم. 2009. هويتنا إلى أين. القاهرة: عالم الكتب.
- قديمي، نواف. 2008. الإسلاميون : سجال الهوية و النهضة : مقاربات في الفكر و الممارسة. الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي.

- لبيض، سالم. 2009. الهوية، الإسلام، العروبة. بيروت، لبنان : مركز دراسات الوحدة العربية.
- لامي، علاء. 2000. نصوص مضادة : دفاعاً عن العراق : الشعب، الوطن، والهوية. بيروت: دار الكنوز الأدبية.
- نجار، لطيفة إبراهيم محمد. 2008. اللغة : جدل الهوية و المعرفة. دبي، الإمارات العربية المتحدة : دار العالم العربي للنشر والتوزيع.
- مسكيني، فتحي. 2001. الهوية والزمان: تأويلات فينومينولوجية النحن. بيروت: دار الطليعة.
- وهدان، عمرو خاطر عبد الغني. 2010. العربية و العولمة : معالم الحاضر و آفاق المستقبل في ضوء الثقافة العربية و الهوية الإسلامية. الإسكندرية : مؤسسة حورس الدولية.